مَثْنَوِيَّةُ الذَّاتِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ
فِي شِعرِ مُحَمَّدِ إِقبَالِ
" دِرَاسَةٌ تَحلِيلِيَّةٌ وَصفِيَّةٌ "

إعداد

د / عطية محمود محمد حسانين

أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية لآداب جامعة الجوف- السعودية

وأستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بكفر الشيخ

١٤٤٣هـ = ٢٠٢١م

ض

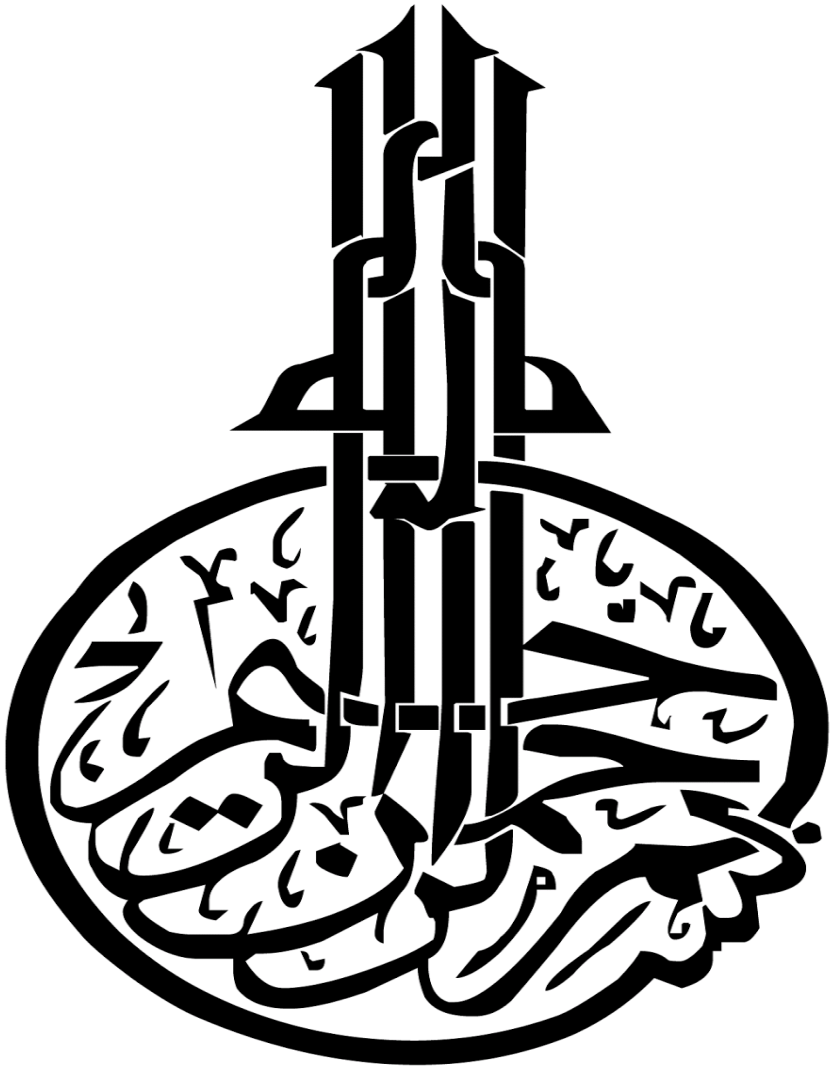

مَثْنَوِيَّةُ الذَّاتِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ فِي شِعرِ مُحمَّدِ إِقبَالٍ "دِرَاسَةٌ تَحلِيلِيَّةٌ وَصفِيَّةٌ"

عطية محمود محمد حسانين
قسم الأدب والنقد المساعد في كلية لآداب جامعة الجوف-السعودية،
وأستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ
البريد الإلكتروني:
Ammohammad@ju.edu.sa

ملخص البحث:

تتبع هذا البحث مفهوم الذات عند إقبال و ما بها من معاني النفي والإثبات والكمال والنقص لعرض تجربته الرائدة التي تميز بها من غيره في محاولة فريدة للتجديد الفكري الإسلامي، والكشف عن الرباط القوة بين الذات المفردة والذات المشتركة في شعره النضالي الفلسفي، فكلاهما وثيق الصلة بمقاصد الحياة الكلية؛ يتداخلان ويتبادلان داخل الحياة علىٰ النحو الذي تكشف عنه الدراسة المبنية علىٰ الدلالات والإيحاءات فيما بينها، وقد يتجاوز لفظ الذات معانيه الإنسانية ويخرج من معناه البشري المعجمي إلىٰ معنىٰ إلهي مُتلبِّسًا بالقوةِ والتَّفرد، ساعيًا إلىٰ الامتلاك المطلق، كما يعمد إقبال إلىٰ الرمزية والإيحاء حينًا، وإلىٰ المعارف والفلسفة حينًا، وإلىٰ التلوين والتصريح حينًا آخر، مع قِلَّة الخيال وضعف الصورة في معاني شعره مما جعله يخاطب الخاصة دون العامة، فشعره فلسفي علمي لا يدرك مراميه ومعانيه إلا كل متخصص، كما سيتضح في سياق هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية: الذات المفردة – الذات المشتركة–الذات المطلقة – النفي والإثبات – فلسفة الأنا.

The duality of the self between negation and affirmation in the poetry of Muhammad Iqbal "Analytical and descriptive study"

Attia Mahmoud Mohamed Hasanin
Assistant Professor of Literature and Criticism at the Faculty of Arts, Al- Jouf University - Saudi Arabia.
Associate Professor of Literature and Criticism at the College of Islamic Studies And Al-Arabiya for Girls in Kafr El-Sheikh
Email.Ammohammad@ju.edu.sa

Abstract:

This research follows Iqbal's concept of the self and its meanings of negation, affirmation, perfection and imperfection to present his pioneering experience that distinguished him from others in a unique attempt for Islamic intellectual renewal, and to reveal the strong bond between the singular self and the common self in his philosophical struggle poetry, both of which are closely related to the purposes of the holistic life. ; They overlap and exchange within life as revealed by the study based on connotations and revelations among them, and the word self may transcend its human meanings and emerge from its human lexical meaning to a divine meaning cloaked in strength and uniqueness, striving for absolute possession, as Iqbal resorts to symbolism and suggestion at times, and to knowledge And philosophy at times, and coloring and declaring at other times, with the lack of imagination and the weakness of the image in the meanings of his

poetry, which made him address the private rather than the public.

Keywords: singular self - shared self - absolute self - negation and affirmation - ego philosophy.

مقدمة

الحمد للهِ رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ المبعوث رحمة للعالمين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وبعد ..

فالذات موضوع عناية لدىٰ كثير من علماء الفقه والتفسير والعقيدة والتوحيد والفلسفة وكذلك الأدباء؛ لأنها عمود الحياة الذي عليه تقوم وتنهض، سواء ذات الإنسان، أو ذات الأمة، أو ذات الله تعالىٰ، وهذه مقصد البحث وعنايته مع قلَّة الدراسة الفنية[1].

فالذات أو الأنا هي ركن ركين للحياة بمفهومها الميتافيزيقي الواقعي؛ لأن المجتمع دون الكائن (الذات المفردة) بات معدوم الوصال، فهي صورة محسوسة لسياقات الحياة؛ لأن انعدام الذات – بديهة – هو انعدامها، فهي ليست كما يظن البعض تحمل نفس الكائن الحيِّ علىٰ الغرور والأَثَرَة ، بل هي سلاح واقٍ من كل الموبقات؛ تعني في حقيقتها ذات المسلم لا غيره كما يرىٰ الفيلسوف الشاعر الهندي محمد إقبال ، تتصل بالذات السماوية، ذات الله تعالىٰ، بيت المأوىٰ الأصيل الذي منه أتت.

---

(1) لابد من الإشارة قبل الخوض في مَعِيَّةِ البحث إلىٰ قلَّةِ الدراسة الفنية وذلك يرجع إلىٰ أن الشعرَ مُترجمٌ غير عربي، فالشاعر أعجمي لا يدرك بلاغة العربية وغير مَعنِيٍّ بمجازات اللغة وزخرفتها، كما أن الشعر المذكور مُصاغ من ديوان آخر نثري غير منظوم، وكلاهما مأخوذ من الفارسية أو الأردية أو الهندية، فأي إشارة هنا إلىٰ الجانب الفني، فالمَعْنِيُّ بها المُتَرجِمُ، وهذا خارج نطاق البحث، مع غلبة الجانب الفلسفي الفكري علىٰ النسق الأدبي داخل دواوينه.

يقول في ديوان " جناح جبريل" في قصيدة بعنوان " الملائكة تغني" [1]:

ذاتُ الحياةِ الحبُّ جوهرُ سرِّها والحبُّ جوهرُه حياةُ الذَّاتِ

ويقول في ديوان " رسالة الخلود"[2]:

إنَّ تلكَ الذَّات شرْحٌ للحَياةْ " لا " و " إلا " مِنْ مَقَاماتٍ لِذاتْ

ويقول في ديوان " جناح جبريل " مخاطبًا الله جل في علاه[3]:

أَنَا غَرِيبُ الدِّيَارِ ومُذنِبٌ، وَلكِن
المَلائِكَةَ لَم تَستطِعْ تَعمِيرَ دُنيَاكَ

أهمية البحث:

تتمثل أهمية البحث في معرفة الذات في أدب محمد إقبال، ولا سيما الذات المفردة وارتباطها – لدىٰ الإنسان- بالبدن والروح معًا، وبيان اهتمام إقبال بالأمة العربية والإسلامية، محاولا من خلال (الذات) ربط الصلة بينها

---

(١) ديوان جناح جبريل، نقله من الفرنسية إلىٰ العربية نثراً: عبد المعين الملُّوحي، وصاغه بالعربية شعراً: زهير ظاظا " ضمن ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ، ط٣ ، دار ابن كثير ، دمشق،٢٠٠٧ ، ١/ ٤٩٣.

(٢) ديوان رسالة الخلود، نقله إلىٰ العربية شعراً: حسين مجيب المصري ، ضمن ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ، ط٣ ، دار ابن كثير ، دمشق،٢٠٠٧ ، ٢/ ٢٨٣.

(٣) ديوان جناح جبريل، محمد إقبال، ترجمة: جلال السعيد الحفناوي، ط١ ، المجلس الأعلىٰ للثقافة – مصر، ٢٠٠٣، ص ١٧.

وبين ذات الأمة من أجل خلق روح الثقة التي توارت خلف مثنوية الغرب الذي يرىٰ " الفصل بين الروح والبدن "[1]

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلىٰ بيان مفهوم إثبات الذات ونفيها عند إقبال من خلال أدبه، وتجلية دور الذات المفردة في بناء الإنسانية وبناء الذات المشتركة؛ لتشكيل بنية الكون والحياة ، وكشف أسرار النفي والإثبات للذات في أشعار إقبال ودورها في بناء المجتمع والفرد مع عدم مجافاة المألوف.

منهج البحث:

اعتمد البحث الموسوم بـ" مثنوية الذات بين النفي والإثبات في شعر محمد إقبال" علىٰ المنهج التحليلي الوصفي، بغية الوصول إلىٰ النتائج التي تبتغيها الدراسة الجزئية لأشعار إقبال.

الدراسات السابقة:

هناك دراسات عربية مترجمة تناولت إقبال بالدراسة، من بين هذه الدراسات ما هو بعيد ليس له صلة بموضوع البحث، ومنها ما هو قريب الصلة، لذا نكتفي بذكر ما هو قريب، مثل كتاب" محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره، للدكتور/ عبد الوهاب عزام"، وكتاب " فلسفة الذات في فكر محمد إقبال" للدكتور/ رائد جبار كاظم، وكتاب " محمد إقبال فيلسوف الذاتية" للدكتور/ حسن حنفي، وكتاب " من مثنويات محمد

---

[1] محمد إقبال فيلسوف الذاتية، حسن حنفي، دار المدار الإسلامي، ط١، ٢٠٠٩م، ٣٨١.

إقبال " ترجمة الدكتور/ يوسف فرج"، وكتاب " محمد إقبال مختارات شعرية " قدمته مجلة الدوحة، ولا يستبعد أن تكون هناك كتب لم أستطع الوقوف عليه ولا سيما التي تناولت إقبال باللغة الأردية أو الفارسية أو الهندية أو البنجابية .

هيكلة البحث:

وللوقوف علىٰ حقيقة الذات عند "إقبال" ولتجلية هذا الاتجاه الأدبي الفلسفي ، احتوىٰ هذا العمل علىٰ ثلاثة مباحث ، تسبقها مقدمة وتلحق بها خاتمة جاءت علىٰ هذا النحو:

المقدمة بينت فيها الدوافع والأهداف والأهمية والدراسات السابقة للوقوف أمام هذا الاتجاه الأدبي الفلسفي والكشف عن.

وفي المبحث الأول : تحدثت عن تحرير المصطلح والتعريف بالشاعر.

والمبحث الثاني: تناولت أنواع الذات في شعر إقبال .

والمبحث الثالث: عرضت كمال الذات بين النفي والإثبات .

وفي الخاتمة: أشرت إلىٰ بعض النتائج والتوصيات التي وقفت عليها.....والله الموفق.

❁❁❁❁❁

المبحث الأول : تحرير المصطلح والتعريف بالشاعر

أولاً: تحرير المصطلح:

ظهر مصطلح المثنوية لدىٰ الفلاسفة وأصحاب المنطق والشعراء المتصوفين، ومنه كتاب " مثنوية جلال الدين الرومي " الشاعر الصوفي المعروف، ترجمة د. إبراهيم الدسوقي شتا، وهي تطلق في علم العروض علىٰ كل بيت جاء شطراه بقافية موحَّدة ، ليست هي القافية المُصَرَّعَةُ أو المُقَفَّاة، تحمل أبعادا متعددة في المعنىٰ والمبنىٰ، وهي إِلْمَا حَاتٌ من باب (المزدوج) الذي ظهر في أواخر العصر الأموي وبدايات العصر العباسي، فالمثنوية بمعنىٰ الثنائية أو الازدواجية، وهذا مقصد البحث.

١ – **المَثْنَوِيَّةُ : بِمَعْنَىٰ الثُّنَائِيَّةِ الَّتِي تَحمِلُ المَعْنَىٰ وَضِدَّه**، جَاءَ فِي اللسَانِ:« حَلَف فُلَانٌ يَمِينًا لَيْسَ فِيهَا ثُنْيا وَلَا ثَنْوَىٰ، وَلَا ثَنِيَّة وَلَا مَثْنَوِيَّةٌ وَلَا اسْتِثْنَاءٌ، كُلُّهُ وَاحِدٌ، وَأَصْلُ هَذَا كُلُّهُ مِنَ الثَّنْي والكَفِّ والرَّدّ لأَنَّ الْحَالِفَ إِذَا قَالَ: وَاللهِ لَا أَفعل كَذَا وَكَذَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ، فَقَدْ رَدَّ مَا قَالَهُ بِمَشِيئَةِ اللهِ»، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ:[أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ] سورة هود: آية ٥؛ قَالَ الْفَرَّاءُ: نَزَلَتْ فِي بَعْضِ مَنْ كَانَ يَلْقَىٰ النبيَّ(ﷺ) بِمَا يُحِبُّ ويَنْطَوِي لَهُ عَلَىٰ الْعَدَاوَةِ والبُغْض[(١)]، فهذه ثنائية، وهي الجمع بين الحب والبغض.

« والمثنوية هي النظرة الفلسفية التي ترىٰ أن هناك وجود لمصطلحين أساسيين، غالبًا ما يكونان متعاكسين، مثل الخير والشر، النور والظلام،

(١) اللسان ، مادة (ثني).

الذكر والأنثىٰ»[1].

٢- **الذَّاتُ:** الأصل في (الذات) الإفراد، فذات الله تعالىٰ مفردة كاملة لا مِثْلِيَّةً لَها وَلا شَبِيهًا، جاء في التنزيل: ﴿ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [سورة الشورىٰ:١١].

وذات الإنسان تكون في حالة (الإثبات) إذا تحقق فيها الإفراد، ولا يتحقق الإفراد إلا بالكمال، ولا يتحقق الكمال والقوة للإنسان إلا بسعيه للخير والطاعة وضبط النفس وحبِّه لأوامر الله تعالىٰ وبغضه لمعاصيه، بهذا يحصل الإنسان علىٰ كمال الذات وقوتها؛ وتكون الذات في حالة (النفي) إذا ذابت في (أنا) جماعية، وفيها تتجلَّىٰ الحياة التي تُولد منها الأمَّةُ، وليس في هذا تخريب لها، بل فيه ما يدعو إلىٰ ترابطها وانسجامها، ولكن تضعف الذات بعدم الطاعة والميل إلىٰ الشهوات واتباع اللذات، وهذا عين البحث ويقينه.

فذات الإنسان، حملتْ مَعنيَين هما:

- الذات في حالة الإثبات: وهي الذات المفردة القوية التي تحمل معاني الخير والطاعة والكمال.
- والذات في حالة النفي: وهي الذات التي انسلكت في الجماعة وتحمل معاني الخير أيضًا.

فذات الإنسان إذن تحمل مثنوية أي (ثنائية) في داخلها، فهي مُفردةٌ ومع غيرِها جَمعٌ، وهي مُثبتَةٌ ومع غيرِها مَنفِيةٌ، وهذا مدار البحث ومقصده الذي حامت حوله هذه الوريقات لتأكد تفرُّد الذات المطلقة (الذات العلية)، وثنائية ذات الإنسان التي ظهرت في مثنويات إقبال الشعرية.

---

[1] ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

ثانياً: إقبال بين النهوض الحضاري والنضال

إقبال علم من أعلام المسلمين، وقطب من أقطاب القرن العشرين، شاعر وناثر، أديب وفيلسوف، اقتصادي وسياسي، شرقي وغربي، عربي وأجنبي، متجدد وثائر، درس الأدب والقانون والفلسفة والاقتصاد، فهو وحده أثَّر في أمَّةٍ، وتأثر بروح القرآن وبالصوفية ولا سيما جلال الدين الرومي، الذي كان دائم الحوار معه في شعره ، كأنه مرشده أو أستاذ له.

محمد إقبال من سلالة برهمية كشميرية تُسمىٰ " سبرو"، أسلم جدُّه الأعلىٰ قبل مائتي سنة[1]، ولد إقبال في سيالكوت بالبنجاب عام ١٢٨٩ هـ – ١٨٧٣ م وكان أبوه (محمد نور) تقيًا، فألحقه بالكُتّاب لحفظ القرآن الكريم، وقد تلقىٰ الابن تأثيرًا وحُبًّا من الأب، وكاد محمد إقبال أن يتخذ طريقًا دينيًا بحتًا لولا أن صديقًا لوالده – الذي كان يعمل بالتجارة – حثَّه علىٰ أن يتلقىٰ الابن العلوم الحديثة[2]، ودخل إقبال المدرسة الابتدائية في سيالكوت، وبعدها التحق بمدرسة الأسكتلندية للدراسة الثانوية، إذ تلقىٰ أصول اللغة العربية والفارسية علىٰ يد صديق والده (مولانا مير حسن)"[3].

ثم التحق بعد ذلك بالكلية الأميرية في لاهور حيث اختار الفلسفة مجالاً لتخصصه، وفيها تتلمذ علىٰ يد المستشرق " سير توماس أرنولد"، ثم

---

(١) ديوان " جناح جبريل، زهير ظاظا، ١/ ٤٧١.

(٢) فلسفة الذات في فكر محمد إقبال، رائد جبار كاظم، دار نينوىٰ- سوريا- ط١، ٢٠٠٩، ص ٣٨.

(٣) مذاهب وأفكار في الفلسفة والفن ، عبد القادر محمود، مطبوعات جامعة القاهرة، ط١، ١٩٧٢م، ص ٣٣١.

سافر إلىٰ إنجلترا للدراسات العليا في الفلسفة حيث حصل علىٰ الماجستير ثم اتجه بعدها إلىٰ ألمانيا، وهناك حصل علىٰ الدكتوراه في الفلسفة، إذ منعه النظام البريطاني من الحصول عليها لأنه أجنبي، وذاعت شهرته في أوروبا إذ أخذ يترنم شعرًا بأفكاره الإسلامية(١).

وعاد من أوروبا بانطباع جديد عام ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٨م ، فإذا كانت مادية الغرب خالية من القيم الروحية والأخلاقية، فإن روحانية الشرق أصبحت خاوية، فرأىٰ إعادة الروح إلىٰ الحضارة الإسلامية بنفخة من الشرق والغرب معًا، فعِلْمُ الغرب وتقدمه التكنولوجي يعملان علىٰ القضاء علىٰ الفقر والمرض، ولكن ليس علىٰ الشرق أن يكرر خطأ الغرب بعبادة القوىٰ المادية، وإنما يجب أن نخضع هذه لأهداف روحية؛ لأن إنقاذ البشرية لا يتم إلا بالدين، والمسلمون أنفسهم في حاجة إلىٰ تجديد الفكر الديني وإزالة معالم الجمود والتحلل التي طمست معالم الإسلام الأصلية(٢).

وا شتغل بالمحاماة إلىٰ جانب ا شتغاله بالتعليم والتدريس في الجامعة من الخارج ، ثم عين عميدًا لكلية الدراسات الشرقية ورئيسًا لقسم الفلسفة دون التفرغ للتدريس، وكان يلقي المحاضرات العامة، التي جُمعَتْ - فيما بعد

---

(١) فلسفة الذات في فكر محمد إقبال، رائد جبار كاظم، ص ٤٢ .

(٢) ينظر: مقدمة ديوان محمد إقبال ،إعداد سيد عبد الماجد الغوري، ط٣، دار ابن كثير، دمشق، ٢٠٠٧، الجزء الأول، ص١٩-٢٠ بتصرف. وينظر: منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين، مصطفىٰ محمد حلمي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٦ هـ، ص ٢٧٤.

– فأصبحت أهم كتاب فلسفي له وهو " تجديد الفكر الديني في الإسلام" . كما شارك في الحياة السياسية، وكان عضوًا في حزب الرابطة الإسلامية وانتخب في الجمعية التشريعية سنة ١٩٢٦، وكان يدعو إلىٰ استقلال المسلمين في دولة تجمعهم، ثم أصبح رئيس حزب الرابطة الإسلامية في البنجاب سنة ١٩٣٥ م، وتوفي في إبريل سنة ١٩٣٨[١]، وقد سار خلف جنازته زهاء أربعين ألف مُشيع، وقد بلغت الجنازة إلىٰ فناء المسجد الجامع (باد شاهي)، فدُفِنَ إقبال في هذا المكان الشريف[٢].

له دائمًا نظرات تَنويريَّة إلىٰ المستقبل والأجيال القادمة في شعره، يستحضر صور الأنبياء كيو سف عليه السلام، فهو يرىٰ أن أفكاره مثل هذا الجمال اليُو سفي، ولكن لا يجد من يشتريها في عصره، وكمو سىٰ كليم الله تعالىٰ، فيقول في ديوانه " أسرار ورموز" [٣]:

أنا لَحْنٌ دون ضَرْبٍ صَعَدَا ... أنا صوتٌ، شَاعِري يَأتي غَدا

دُونَ عَصري كلُّ سرٍّ قد خفِي ... بهذي السوق يُشري يوسُفي

أنا في يأسٍ من الصَّحب القديم ... مُشْعَلٌ طُوري ليغشاه كليمْ

---

(١) ينظر: ديوان أقبال ، ١/ ٢١. وينظر: منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين ، ص ٢٧٤-٢٧٥.

(٢) ينظر: فلسفة إقبال والثقافة الإسلامية في الهند وباكستان، محمد حسن الأعظمي ، والصاوي علي شعلان ، ط٢، دار الفكر – دمشق ، ١٩٧٥م، ص ٢٥.

(٣) ديوان الأسرار والرموز، محمد إقبال ، ترجمة: عبد الوهاب عزام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، (د: ط، ت)، ص ٢٤.

كم تجلَّىٰ شـــاعرٌ بعد الحِمامْ يُـوقـظُ الأعـيـنَ حـيـنًـا ويـنـامْ
وجـهُـهُ من ظُـلـمـةِ الـمـوت سَـــفَـر ونـمـا مـن قـبـره مـثـلَ الـزَّهَـر

ويؤكد هذا المعنىٰ في غير موضـع من شـعره، فهو يرىٰ شـعره للأجيال القادمة، وصـوته يسـمعه من هو آتٍ، فهو يتصـل بالماضـي، وعيناه ترىٰ المسـتقبل، وتسـعىٰ إليه وتطمح، فيقول في موضـع آخر من ديوان الأسـرار والرموز[1]:

أمسِ في قـلـبـي، وعـيـنـاي الـغـد أنـا في الـجـمـع فـريـدٌ مُـوحَـد

فالذات عنده تسـير من جيل إلىٰ جيل، تحمل الآهات والطموحات، فيقول:[2]:

خُشـــوعـي في عَـذابـاتـي وَوَثْـبـي في طُـمـوحـاتـي
ونـوعُ طـرقـتـي هـذي الَّـتـي أمـحـو بـهـا ذاتـي
ســألـتُـك أن تـعـتِّـقـهـا وتَـمْـزُجَـهـا بـآهـاتـي
وتسـقـيـهـا لـقـافـلـتـي بـمـوكـبِ جـيـلـنـا الآتـي

وقد يتعثر الأنا ولكنه ينهض، وقد لا يطيق وترُه لحنَه ولكنه لا يُبالي انقطاع الأوتار، فيقول[3]:

---

(1) ديوان الأسرار والرموز، محمد إقبال ، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ص ٥٨.

(2) ديوان " جناح جبريل، صاغه بالعربية شعراً: زهير ظاظا ، ١/ ٥١٤.

(3) ديوان الأسرار والرموز، محمد إقبال ، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ص ٢٤.

أنـا لـحـنٌ كَـلَّ عـنـه الـوتـرُ لا أُبـالـي أنَّ عُـودي يُـكْسَـرُ

وقد يستعصي عليه التعبير، فشعره لا يحمل كل ألحانه، قد لا يمكنه معجمُه اللغوي من طرح كل أفكاره أو ظهور كل تجاربه وانفعالاته، فيقول(١):

حاشا لقيثارةٍ مهما بَذَلْتَ لها أن تستطيع احتواءَ اللَّحنِ والوتر

إقبال وأرض الحجاز:

كان محمد إقبال كثير الولع بالإسلام ورجالاته، والجزيرة العربية وبَيدَائها، فهو وإن كان أعجميًا فذو لسان عربي، وإن كان هندي الهوية فهو حجازي الهوىٰ، غربي الكلمات عربي الدلالات، أشار إلىٰ ذلك في غير موضع من أشعاره ، فقال(٢):

رياح الـعُـرْبِ في الـبيداء سـيري وموجَ النيل في شغفٍ أسيري
عـن الـفـاروق ، لـلـفـاروق أدِّي بلاغَ الدين والملكَ الكبيرِ

ويقول (٣):

أنـا أعـجَـمِـيُّ الـدَّنِّ لـكـن خَـمْـرَتـي صُـنـعُ الحِجازِي وكرْمَها الفَيْنَانِ
إنَّ كـانَ لي نَغمُ الهنود ولحنُهم لكنَّ هـذا الصَّـوتَ مِن عَـدنَـانِ

(١) ديوان " جناح جبريل، صاغه بالعربية شعراً: زهير ظاظا ،١/ ٤٣٤ .

(٢) ديوان ضرب الكليم، محمد إقبال ، ترجمة: عبد الوهاب عزام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، (د: ط، ت)، ص ٦ .

(٣) ديوان " صلصلة الجَرْسِ ، ترجمة: صاوي شعلان" ضمن ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ، ط٣ ، دار ابن كثير ، دمشق، ٢٠٠٧، الجزء الأول، ص ١٠٠ . الفينان: أي ذو الأفنان طويل الأغصان.

ويكرر المعنىٰ نفسه في ديوان له آخر، فيقول[1]:

أنـا أعـجَـمِـيٌّ الـحـبِّ إلا أنَّـنـي أطلقتُ في الحَرَمِ الشـريفِ لِسَـاني

كـمْ ثـوبِ إحـرامٍ عـلـىٰ مـتضـرِّع مـزقْـتُـهُ بـالـلَّـحـن مـن ألـحـاني

وكثيرا ما كان يشتاق إلىٰ الجزيرة العربية (أرض الحجاز)، وكان يشعر دائما بالحنين إليها، يقول في، قصيدة (الشكوىٰ) من ديوان (صَلْصَلَة الجَرْسِ)[2]:

أشـواقُنَا نَحوَ الحِجازِ تَطلَّعتْ كَحنِينِ مُغتَربٍ إلَىٰ الأوطَانِ

إنَّ الطيورَ وإنْ قَصَصْتَ جَناحَها تَسْمُو بِفطرتِهَا إلىٰ الطَّيرَانِ

ويشتاق إلىٰ المدينة النبوية، فيقول[3]:

مـولاي خُـذْ بـيـدي لـيـثـربَ إنَّـه بتُرابِ يثربِك المطهَّرِ مرهمي

" كانت حياته حافلةً بشوق الذات نحو السماء وأماكن الرسالات النبوية، ورنَّ أجراس المحبة والإرادة من أجل إعادة انتشار الرّوح المحمدية في الوجود"[4].

وكان-دائمًا- يُحِسُّ الغربة وهو طالب في لندن وروما؛ لأنه مجتمع لا

---

(1) ديوان " جناح جبريل، زهير ظاظا ، ١/ ٤٦١ .

(2) ديوان " صلصلة الجَرْسِ ، ترجمة: صاوي شعلان، الجزء الأول ، ص ٩٩ .

(3) ديوان " جناح جبريل، زهير ظاظا، ١/ ٤٣٥ .

(4) محمد إقبال مختارات شعرية ، كتب المقدمة: بومدين بوزيد ، وزارة الثقافة والفنون والتراث – دولة قطر، ٢٠١٤م ص ٨.

ينتمي إلىٰ جلدته أو هويته، فيقول في إحدىٰ قصائده من ديوان جناح جبريل[1]:

أيام لندن ماخورٌ لطالبها ... بما تضمُّ من الحانات والبِيَعِ
أيام كنتُ صلاةَ الفجر أبعثُها ... علىٰ الصَّقيع بمرأىٰ الفاجرِ الهلِعِ
ما لي هنا ولهيبي حيثُ رحتُ ذكي ... يثير في حتمة آلام مجتمعِي
وكيفَ كانتْ هناكَ الناسُ تُنكِرُنِي ... وتدَّعي أنَّ همَّ الشرقِ جاء معي
ذكرتُ دلهي بروما حين طفتُ بها ... فكنت بينهما في ملتقىٰ وجعي
كِلا الدروس لها سحرٌ وأبَّهةٌ ... ربَّاه عفوكَ قد أبْعَدتَ مُنتجعي

- **إقبال الثائر:**

كان يشكو دائما غياب النهضة الإسلامية وركودها وهي بجوار مبعث الوحي، والأمم البعيدة تنهض تبني حضارتها، فكان يثور في شعره علىٰ هذا الركود، ويطلب البعث قبل أوانه لينهي الوجود، فيقول في حوار مع ملائكة السماء[2]:

لما اشتكىٰ لله إسرافيلُ من ... شكواي قال- بحرقةٍ وتنهُّدِ-:
هذا الفتىٰ قبل الأون يريد أن ... ينهي الوجود بشِعْره المتمرِّدِ
فأجابه صوتٌ: أليس أشدَّ من ... هذي النَّهاية ما ترىٰ يا سيدي
إحرامُ أهلِ الصِّين داخلَ سَدِّها ... ورقودُ مكَّةَ في جوارِ محمَّد

لذا يقول لا تنتظر غيرك أن يبدأ طريق الإصلاح، كن أنت بداية الثورة

---

(1) ديوان " جناح جبريل، زهير ظاظا ، ١/ ٤٣٧-٤٣٨.

(2) السابق، ١/ ٤٢٢-٤٢٣.

التي تخلِّص الناس حينما تُشعل جذوة ذاتك، فيقول[1]:

تـمـعَّـن بـقـلـبـك واسـتَـفْـتِـهِ ولا تسـألِ الشـيخَ عن شـانِهِ
خـلا حَـرَمُ الله مـن أهـلـه فـكـنْ أنـت جَـذْوةَ أركـانـه

ويقول ثائراً أيضا علىٰ التقليد الأعمىٰ لأروبا[2] :

ألـهـتـك أوربَّـة بـالسِّـحـر عـن ذاتـك
إيَّـاك أن تـرضـىٰ عـن كَسْـرِ مـرآتـك

وكثيراً ما يستنكر علىٰ الأمة تشتتها بين سياسة الدولة وعقائد الصوفية، فيلجأ إلىٰ حقيقة المُعَايَنةِ لدىٰ القارئ فيقول[3]:

فـإلىٰ متىٰ صـمـتي وحـولـي أمَّـةٌ يلهو بهـا السُّـلطـانُ والـدرويش
هـذا بِسـبْـحَـتِـهِ وذاك بِسَـيْـفِـهِ وكـلاهـمـا مـمـا تـكـدّ يـعـيش

ويثور علىٰ تخاذل المسلمين وخنوعهم فيقول غاضبًا[4]:

وهـبَ الـمسـلـمـيـنَ إقـبـالُ نـاراً فـإذا الـنـارُ ذاتُـهـا في ذُبـول!!

فـإقبـال يمنح النـاس اللهـب، ولكن لا جـدوىٰ إذا كـانوا غير قـابلين للاشتعال، فهو لا يكون إلا شعلةً تُلهب شَررَ الناس، فيقول[5]:

---

(1) ديوان " جناح جبريل، زهير ظاظا ، ١/ ٤٣٠.
(2) السابق، ١/ ٤٢٦.
(3) السابق، ١/ ٤٣٥.
(4) السابق، ١/ ٤٥٠.
(5) السابق ، ١/ ٤٤٣.

يـقـولـون إقـبـال في فـقـره غـنـيٌّ، عـلـىٰ أيِّ كَـنْـزٍ عـثـرْ
وعـالـمُـهُ لَـهَـبٌ كـلُّـهُ ولا يـمـنـحُ الـنَّاس إلا الشَّـرْ

فإقبال لا يتبع الآخرين الذين يثورون بأوامر من غيرهم، وإنما هو تحرك ذاتي، تحترق فيه ذاته، بلا حاجة لآخرين يشعلون ثورته، فيعمد إلىٰ استحضار الصورة البيانية أحيانًا، فيجعل من نفسه فراشةً ومن غيره يراعة، فيقول في مقطوعة رمزية بعنوان " الفراشة واليراعة ": (١)

حمداً لربِّي ما خُلِقتُ فراشةً بجناحها وسمُ العبيد الرُّقَّد
أنا لستُ أستجدي سواي تسوُّلًا أنا في فؤادي جذوتي وتوقُّدي

ويثور من أجل القدس في أسلوب حقيقيٍّ غير مُنعزلٍ عن الواقع، فيقول(٢):

كيف يعلو منبرٌ لِلمُسلمين فوقَ أرضٍ في يد المُستَعمرين
حَرِّرِ الأرضَ معًا والمسجدا لا يكنْ غَيْرُكَ فيها سَيِّدَا

ويقول مُستنهضًا الأمةَ العربية في قصيدة تحمل عنوان الديوان " والآن .. ماذا نصنع يا أمم الشرق؟" وهو تعبيرٌ إنشائِيٌّ يدل علىٰ الحيرة والاستنكار(٣):

---

(١) ديوان " جناح جبريل، زهير ظاظا ، ١/ ٤٥٣ .

(٢) ديوان " والآن .. ماذا نصنع يا أمم الشرق؟"، نقله إلىٰ العربية نثراً: أحمد الغازي، وصاغه بالعربية شعراً: صاوي شعلان المصري، ضمن ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد الغوري، ٢/ ٣٥٩-٣٦٠.

(٣) ديوان " والآن .. ماذا نصنع يا أمم الشرق؟"، ٢/ ٣٨٩.

تَـئِـنُّ الـخـلائـقُ في الأرض طُـرّا وقد سـامها الغَرْبُ عَسْـفـًا وَجُوْرا

فـيـا أُمَـمَ الشـرقِ فـيـم الـتَّـواني لـقـد آن أنْ يُصْـبِـحَ الشَّـرْقُ حُـرّاَ

فلقد ناد بالنضال والمقاومة والثورة في معظم أبيات دواوينه ، ومن أراد أن يتعرف علىٰ إقبال الثائر فليطالع ديوانه " والآن .. ماذا نصنع يا أمم الشرق"؟.

● إقبال وتأثره بالقرآن.

ويشير في غير موضع من شعره أن طلاوة أشعاره، وفيض معانيه، وعذوبة منهله، وحلاوة كلماته؛ مستمدة من روح القرآن الكريم، ونابعة من وحي جبريل عليه السلام، فيقول[1]:

إنَّ أنـفـاسـي الـتـي أحـدُو بـهـا أُخِذَتْ من صَـدْرِ جبريلَ الأمينِ

ويقول أيضـًا [2]:

ومَـن تـخـلَّـق بـالـقـرآن مـجَّـدَهُ وأصـبحتْ نفسُـه للناس قرآنا

● إقبال والحضارة:

نادىٰ إقبال بالحضارة والتجديد، فالبنية الفنية في أشعاره تتمتع- دائما- بالحركية والفاعلية، فهو يرىٰ الأمة الإسلامية هي أصل النهضة ونبع التقدم والتطوُّر؛ لأنها منبع الوحي، وختام الرسالات، فكل الأمم تستقي منها النهوض، تسعىٰ بلا توقف أو أُفول، فيقول [3]:

---

[1] ديوان جناح جبريل، زهير ظاظا، ١/ ٤٢٥.

[2] السابق ، ١/ ٥٣٥.

[3] السابق ، ١/ ٥١٥.

وقـوافـل الأشـــيـاء في الـــ آفـاق تَضْـــرب بـالـدُّفـوفْ
وتـروح تُـمْـعـنُ في الـتَّـجـدُّ د لا تـفـكِّـر بـالـوُقـوفْ

ويُخاطبُ – بالأنا التي تحمل معنىٰ الفخر والاعتزاز– (الملَّا) الشـيخَ مُنكراً جموده؛ ليعبِّر عن رغبته في التجديد الفكري؛ وفهم الدين فَهمًا جديداً يُغاير فهم الشيخ أو المعلم؛ ليخرج بالدين من الجمود والأساطير والأوهام التي لا يُقرُّها الإسـلام، فيقول معترفا بتصـوفه منكراً علىٰ الشـيوخ جمودهم وتزمُّتهم[1]:

أنـا الصـــوفيّ والـمـلَّا أجَـافِـي وتَـعْـلَـمُ مَـنْ أكـونُ بـلا خـلافِ
وتـخـجـلـني الصـــراحـةُ في كـلا مي عن الذات اختفي لا عنْ صِـحَابي
أجِـبْ بـالله مـن مـلـكَ الـقـلـوبـا ومَنْ قـد ألهَمَ الشـوقَ المـذِيبَا
كِلانـا مَنْ رَمَىٰ في الـدِّين سَـهْمـًا فَقُلْ في الرمي من كان المُصـيبا

ويتَّجه إلىٰ الحقيقة دون تشـويه للواقع الفعلي، فيسـتنكر علىٰ الحضـارة حريتها المطلقة التي تستعبد الناس، فيقول[2]:

سـمحتْ حضـارتُنا الحديثةُ هذه للنَّاس يتَّجهون حيث أرادوا
مَكَرَتْ بعـالَـمِهم فظـاهرُ أمرهـا حُـرِّيـةٌ والـواقـعُ اسـتـعـبـادُ

ولا يستهويه حضارة الغرب فهي علىٰ غير مِلَّته، ويطالب حضارة الإسلام

---

(1) ديوان " هدية الحجاز، صاغه بالعربية شعراً: حسين مجيب المصري" ضمن ديوان محمد إقبال، إعداد: الغوري، ٢/ ٤٤٨.

(2) ديوان جناح جبريل، زهير ظاظا، ١/ ٤٣٥.

الماثلة في المدينة النبوية بالنهوض والنفور، فيقول[1]:

بـريـقُ الـحضـــارة أوجُ الـتَّـرف لـدىٰ الغربِ لم يســتطعْ فتنتي
أنـا ابـنُ الـمـديـنـة وابـنُ الـنَّـجـفْ غـبـارُهـمـا كـانَ فِـي مُـقـلـتـي
غـبـارُهـمـا قـطـرةٌ لـلـعُـيـون وأنـفـعُ طـبٍّ لـذي عـلَّـةِ

ويقول منكراً أيضـا الحضـارة الغربية مُسـتعينـًا بـالحديث النبوي الشريف[2]:

فَتَّشْـتُ في هـذي الحضـارة كلِّها لـم ألـقَ فـيـهـا غـيـر نـافـخ كـيـر
فتـداركوا الشَّـرقَ الـذي يرنو لها وليعْـلُ شـاعرُه بصـوتِ نكيرِ
في الغرب فلسـفـة وفي تصـديقها تهديمُ صَـرْحِ الذَّات في الإسـلام
وصـمـيـمُ ذاتـك في حـوار إلـهـهـا وحوار موسـىٰ ليس محضَ كلام

ويسـتنكر الخنوع والتقليد الأعمىٰ في مقطوعة بعنوان " أُمم الشَّـرق"، فيقول[3]:

كـيـف تُـجـلـىٰ حـقـائـقٌ لـعـيـونٍ عَميتْ بـالخضـوع والتقليدِ
كيف يُحيي الفرنجُ عُربـًا وفُرْسـًا بـفـنـونٍ تسـيـرُ نـحـو الـلُّـحـود

ويقول في وصـف الحضـارة الغربية، وأنها لم تقدِّم للبشـرية شـيئـًا، فهو يراها جسدا بلا روح، وعقلا بلا قلب[4]:

---

[1] ديوان " جناح جبريل، زهير ظاظا ، ١/ ٤٣٧.

[2] السابق ، ١/ ٤٩٤.

[3] ديوان ضرب الكليم، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ٢/ ٦٢.

[4] السابق،٢/ ٦٣.

أرىٰ تـــثـــقـــيـــف إفـــرنـــج فســـادَ الـقـلـب والـنَّـظـر
فَـــروحُ حضـــارةٍ لـــهـــمُ خَـلَـتْ مـن عـفَّـة الـوطـر
إذا مـــا الـــروح جـانـبـهـا جـمـالُ الصَّـــفـو والـطَّـهُـر
فـــأيـــن جـــمـــالُ وجـــدانٍ ولـطـفُ الـذَّوقِ والـفِـكَـر؟!

لذا يخاطب الله تعالىٰ لِيَهبَ لنا رسـالةً جديدة لأن حضـارة أوربا جارت علىٰ البشر فيقول[1]:

هـبْ عصـرَنـا مثنويّـًا آخراً فلقـد جارت رسـالةُ أوربة علىٰ البشـر

فمحمد إقبال لا يخفىٰ علىٰ المتخصـصـين من الفلاسـفة والأدباء، والأهمية التي يحظىٰ بها هذا العَلَمُ لا ينكرها أحد؛ لأنه من أخيار الأعلام النبلاء في عصرنا الحديث، ففي سيرته ومؤلفاته النثرية والشعرية وما يتصل به من مذكرات ومقالات ما يدل علىٰ مكانته في عالم الأدب والفلسـفة والدين، فلقد خدم العلم والدين حتىٰ أنفاسـه الأخيرة[2]، وإن كانت هذه الترجمة المختصـرة لا تفي بمكانته، ولكن حسـبي خُطوات خَطوتُها علىٰ الدَّرب كَشَـغَفِ بَاحِثٍ أو دَارسٍ أَشَـادَ بأسـلوب بسـيط يتميز بالشـمول والاختصار؛ ليدرك مَن لا يعرفه من المسلمين منزلته التي ترسَّختْ في أذهان الأجيال، وليطالع المُتزمِّتون والكُسَـالىٰ ما قدَّم هذا الشـاعرُ الأعجميُّ للإسلام.

❁❁❁❁❁

(1) ديوان جناح جبريل، زهير ظاظا، ١/ ٥٣٤.

(2) قال قبل وفاته بعشر بدقائق:" ليت شعري! هل تعود النغمة التي أرسلتها في الفضاء؟، وهل تعود النفحة الحجازية؟، قد أظلَّني موتي، وحضرتني الوفاة، فليت شعري!، هل حكيم يخلفني...؟" مقدمة ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ، ص ٢٥.

المبحث الثاني : أنواع الذات في شعر إقبال

اشتهر الشاعر والفيلسوف الهندي المسلم محمد إقبال بتأثيره الفعَّال في الفكر الإسلامي الحداثي المتجدد حسب نظريته الميتافيزيقي لطبيعة الواقع، في كتابه " الفكر الديني المتجدد " وكتابه " تطور ما وراء الطبيعة – الميتافيزيقيا– في فارس"، هذان الكتابان الللذان اجتذبا قدرًا هائلاً من التعليقات وأثارا جدلاً عالميًا وعلميًا كبيرًا، هما نتاجه من النثر[1]، أما نتاجاه من الشعر فهو كثير – تسعة دواوين – وسيدور في فلكها في هذا البحث.

●مفهوم الذات:

الذات في اللغة تعني النفس[2]، وجاء في المعجم الوسيط أنها مُحدثة، فقال: "و(الذَّات): النَّفس والشخص، يُقَال فِي الْأَدَب " نقد ذاتي" يرجع إِلَىٰ آراء الشَّخْص وانفعالاته وَهو خلاف الموضوعي "[3].

فمفهوم إقبال عن الذاتية وكيفية ارتباطها بالقرآن الكريم والتقليد الديني

---

(1) وله مجموعة من الأفكار منها: " أفكار هائمة **Stray Reflections** " وآراء وأفكار، وله رسائل منها:" رسائل وكتابات إقبال **Letter and writings** " و" رسائل إقبال إلىٰ علي جناح **Letter of Iqbal to Jinnah** ". ينظر: محمد إقبال فيلسوف الذاتية، حسن حنفي، ص ١٦.

(2) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، وآخرون ،ط١، دار عالم الكتب، ٢٠٠٨م، ١/ ٨٠٠.

(3) المعجم الوسيط، باب (الذال) ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة ، ١/ ٣٠٧.

الإسلامي، ولا سيما العقائد المرتبطة بالصوفية، يعتبر أحد المجالات الأساسية للنقاش العلمي في فلسفته، يتعلق هذا الجدل بمسألة مدىٰ فكر إقبال، سواء أكان إقبال يقبل أم يرفض المفاهيم التقليدية القديمة عن الذات، وإلىٰ أي مدىٰ يتبنىٰ المفاهيم الفلسفية الغربية عن الله تعالىٰ.

فالذات عند إقبال هي " للكائن الفرد الشخصية والقدرة والكمال، وهي – في تطوُّرها دائما – تضع المثل العليا، وتحققها بجهودها"(١).

فمفهوم الأنا أو الذات من منظور إقبال يتفق مع المنظور الفلسفي عند سيجمند فرويد الذي يربطها بالإدراك الحسي للأشياء قبل مرحلة الشعور، فهي" عبارة عن امتداد لعملية تمايز السطح، وفضلا عن ذلك فإن الأنا يقوم بنقل تأثير العالم الخارجي إلىٰ الهُوَ وما فيه من نزعات، ويحاول أن يضع مبدأ الواقع محل مبدأ اللذة الذي يسيطر علىٰ الهُوَ"(٢).

ويبدو أنه يوجد تجانس بين شعر إقبال وبين معنىٰ الذات أو الأنا، وأنه يوجد عاملٌ آخر له دور في تكوين الأنا و تأثير الإدراك الحسي، وهو " البدن"، فمن بَدَنِ الشخص ذَاتُه؛ لأن الشعور بالذات مستمد في الأصل من الإحساسات البدنية، والأنا منطقة إسقاط لجميع الإحساسات التي تحدث في البدن؛ لأن الإحساسات البدنية – وهي التي تكوِّن حقيقة الأنا– تنفذ إلىٰ الشعور مباشرة، أما العمليات العقلية فقد تكون لا شعورية، وقد لا تستطيع

(١) مقدمة ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ، ص ٦٤.

(٢) الأنا والهو ، سيجمند فرويد ، ترجمة: محمد عثمان نجاتي، ط٤، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٤٢.

النفاذ إلىٰ الشعور مباشرة[1].

يقول في تعبير خالٍ من الحس الخيالي تحت عنوان " الروح والجسم "[2]:

تحيَّر الناسُ في ذا اللغز من قدم: ما جوهرُ الرُّوح أو ما جوهرُ البدن؟!

فالذات صعبة المنال يتعثر فيها الإنسان، لا يعرف حقيقتها، ولا من أين أتت، يقول إقبال متلمِّسًا الجانب الحسي الحقيقي؛ لجذب انتباه السامع[3]:

هل لمثلي مِنَ الفضاء نصيبٌ مَنْ تُراني أنا وما جنسي؟!

جئتُ للأرضِ؟ أم تخلَّقْتُ منها؟ قفصي الكونُ؟ أم نهايةُ نفسي

كَمْ تَعَثَّرْتُ في متاهاتِ ذاتي وكأنِّي في أرضِ ذاتي دخيلُ

بين نفسي منَ الخصامِ وبيني سهرٌ دائمٌ وليلٌ طويلُ

ومع ذلك يرىٰ أن الذات أثمنُ من الذهب والفضة، فيقول[4]:

لا تَرضَيَنْ فضةً بالذاتِ أو ذهبا ولا تبعْ بِشَرَارٍ ذلك اللَّهبا

إليك ما قال(فردو سي) الذي كشفتْ للفُرس أقوالُه الأستارَ والحُجُبا:

(المالُ يوجدُ حتَّىٰ حينَ تَفْقِدُه فلا تكنْ وَقِحًا إنْ رمتَه طلبا)

ولقد قامت فلسفة إقبال علىٰ مبدأين: الأول: نفي الذات، والثاني: إثبات

---

(1) السابق ،ص ٤٣-٤٥ بتصرف.

(2) ديوان ضرب الكليم ، ترجمة/ عبد الوهاب عزام، ،جـ٢، ص ٥٠.

(3) ديوان جناح جبريل ، زهير ظاظا،جـ١، ص ٤٦٥.

(4) السابق ، ١/ ٥٤٣

الذات، ظهر ذلك في قصيدة :(لا إله إلا الله) التي اعتمد فيها علىٰ أحد البحور التي تتميز بالخِفَّة في الوزن والذوق والإيقاع ذي الجرس المؤثر، مثل بحر (الخفيف)، التي يقول فيها [1]:

مُسْتَسِرٌّ في الذات معنًىً بعيدٌ ... سِرُّهُ لا إله إلا اللهُ
سَيفُ الذَّاتِ قَاطِعٌ غَيرُ نَابٍ ... شَحْذُهُ لا إله إلا الله
عصرنا يبتغي خليلًا حَطومًا ... وُثْنَه. لا إله إلا الله
إن دنياك مَوثن لا تصدِّق ... زوره. لا إله إلا اللهُ
في متاع الغرور تسعىٰ وتبغي ... ربحه! لا إله إلا الله
يا أسير الخسار والربح يَنسىٰ ... نفسه! لا إله إلا الله
مالُ دنياك والبنون خداعٌ ... كلُّه. لا إله إلا اللهُ
هي أصنام واهمٍ قد براها ... وهمُه. لا إله إلا الله
حبس العقلَ في مكانٍ ووقتٍ ... كفرُه. لا إله إلا الله
لا زمانٌ ولا مكان فحطِّم ... غلَّه. لا إله إلا اللهُ

فالإسلام يتلخص في هذين المبدأين؛ لأن الشهادة – وهي خلاصة الاسلام – قائمة علىٰ النفي (لا إله) والإثبات (إلا الله)، فالإسلام لا يكتمل داخل الذات إلا باكتمال النفي والإثبات، ويكرر المعنىٰ ليؤكد الفكرة التي تعتمد علىٰ حقيقة دينية في قصيدة بعنوان (لا و إلا)[2]:

---

[1] ديوان ضرب الكليم، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ٢/ ٢٣.

[2] السابق ، ٢/ ٥٥.

تقضي الحيا بـ" لا " في البدء نافية وفي النهاية " إلا " تُكمل الشانا
إن لم تجئ بعدها " إلا " مثبِّتةٌ كانت علىٰ الموت " لا " في الدهر عنوانا
إنَّ أمَّةً روحُها لم يمض معتزمًا عن " لا " فقد آذنت بالهُلْك إيذانا

ويرىٰ إقبال أن (لا و إلا) أصل الذات، فيقول[1]:

لا وإلَّا فَتْحٌ لبابِ الحياةِ واحتسابُ الوُجودِ والكائناتِ

ولا يغيب التكرار والتقارب للمعاني داخل كل حقل شعري؛ للكشف عن دلالاتٍ وَاحدةٍ يدور معظمها حول ماهية الذات، وحقيقة وجودها، وكيفية تصورها في الحياة وخارجها.

فإذا نظرنا إلىٰ بداية الذات الكائنة في الإنسان أدركنا أن الذات الإنسانية ذات أصول سماوية، فالكائن الإنسان ذو نسبٍ عُلْوي، فهو في الأصل كان لا يسكن الأرض، وهذه نظرة إقبال عن الذات.

سبقه إلىٰ هذه الوجهة السلف الصالح أمثال ابن الجوزي في كتابه المدهش، يقول: "إن الجنَّة إقطاعُنا، وَإِنَّمَا أخرجنَا عَنْهَا مسافرين"[2].

فمحمد إقبال ومَنْ قَبلَه يرىٰ أن الإنسان يعود في أصل ذاته إلىٰ السماء، فهو كائن سماوي، علاقته بالأرض عابرة، وعليه أن يعدَّ نفسه للعودة إلىٰ موطنه الأصيل، يظهر ذلك كثيرا في أشعاره، منها قصيدته المشهورة (

---

(1) ديوان " والآن .. ماذا نصنع يا أمم الشرق؟"، ٢/ ٣٥٤.

(2) المدهش ، أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد الجوزي، تحقيق: مروان قباني، ط٢، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٩٨٥م،ص٣٤٩ .

جواب الشكوىٰ) من ديوان (صلصلة الجرس)، يقول فيها[1]:

كـلامُ الـرُّوح لـلأرواح يَسْـــرِي ... وتُـدْركُـه الـقُـلـوبُ بِـلا عَـنـاء
هـتـفـتْ بِـه فَـطـارَ بِـلا جَـنـاحٍ ... وَشـقَّ أنينُـه صَـــدْرَ الفَضـــاءِ
وَمَـعـدنُـهُ تُـرابِـيٌّ ولـكـنْ ... جَرتْ في لـفـظِـه لُـغـةُ السَّـمـاءِ
لقـد فـاضـــتْ دموعُ العِشْـقِ منِّي ... حـديـثـًا كـان عُـلْـوِيِّ الـنِّـداءِ
فـحـلَّـقَ في ربـا الأفـلاك حـتَّـىٰ ... أهـاجَ الـعـالـمَ الأعـلىٰ بُـكـائي
تَحَـاوَرَتِ الـنجومُ وقُلْن صـــوتٌ ... بِقُربِ العَرشِ مَوصـــولُ الدُّعـاءِ
وجـاوبـت الـمـجـرَّةُ: عـلَّ طـيـفـًا ... سَـــرىٰ بينَ الكَواكـبِ فِي خَفـاءِ
وقـال الـبـدرُ: هـذا قـلـبُ شـــاكٍ ... يُواصـــلُ شـــدْوَهُ عِندَ المَسَـــاءِ
ولَمْ يَعرفْ سِـوىٰ رِضـوان صـوتِي ... ومـا أحـرَاهُ عِـنـدِي بـالـوَفَـاءِ
ألـمْ أكُ قـبـلُ في جـنَّـات عـدنٍ ... فـأخرجني إلىٰ حينٍ قضـــائي

ويطوف الشـاعر بخياله داخل دلالاته المعرفية، ليصـنع قصـة حوارية، ليرىٰ أنَّ أهل السـماء سـمعن نداءَ هذا الكائن في الأرض، فدار حوارٌ بين الملائكة والكواكب والمجرَّات، والكلُّ يتسـاءل : مَن صـاحب هذا الصوت؟، فظنتْ المجرَّةُ: أنه طيف خيال، ويرىٰ البدر أنه صوت شاك، ولم يعرف صوته غير خازن الجنة رضوان – عليه السلام– فلقد كان رفيقًا له في يوم من الأيام في الجنة، وخرج منها إلىٰ حينٍ ثم يعود، فهذا صـوت ذات الإنسان، الذات المفردة .

(1) ديوان " صلصلة الجَرْسِ ، ترجمة: صاوي شعلان، الجزء الأول ، ص ١٠١ .

ويقول في موضع آخر من ديوان " جناح جبريل " للشعر الحر، في قصيدة بعنوان " الملائكة تودِّع آدم من الفردوس [1]:

- يقولون إن خلقك من طين ولكنك
- قمريٌّ وكوكبيٌّ في طبيعتك

ويقول في نفس المعني في ذات القصيدة، ولكن في ديوانها المنظوم [2]:

كُنتَ من طينٍ ويبدُو أنَّ ذاك الطَّينَ ولَّىٰ

ويكرر المعنىٰ في أخرىٰ[3]:

لا ينتمي للأرض وهو سليلُها لا الشَّامُ موطنُه ولا قاشانُ
مُتَعدِّدُ الأوصاف في قُدراته ملكٌ وفي رغباته إنسانُ

- **أنواع الذات عند إقبال :**

تحملُ الذاتُ عند الفيلسوف الهندي إقبال، سواء أكانت الذات المفردة (الأنا والنفس)، أم الذات المشتركة(ذات الأمة)، أم الذات الإلهية (روح الله تعالىٰ)، أسراراً مطوية وراء معاني أشعاره التي تعتمد علىٰ الحقائق العلمية والفلسفية المحسوسة والمعنوية؛ لما فيها من أسرار ورموز ودقائق وحقائق انفرد بها شعره دون غيره، فمن يمعن النظر في قصائده يجدها تميط

---

(1) ديوان جناح جبريل ، محمد إقبال، ترجمة: جلال السعيد الحفناوي، ص ١٧٢ .

(2) ديوان جناح جبريل، زهير ظاظا،١/ ٥٢١، ولقد أحببتُ أن أنقل النصَّ من الديوان المنظوم أيضاً؛ ليتضح الفرق بين الديوان في حال نظمه وحال نثره.

(3) السابق ،جـ١، ص ٤٥٠ .

اللثام عن الحقائق الكائنة فيما أودعه الله تعالىٰ في ذات الإنسان؛ ليحقق الغرض المرجو من الوجود والتعايش والحياة والنيابة في الأرض.

كما تتمثل الخصوصية الفلسفية عند إقبال وارتباطها بالحقائق الدينية في تصوير الذات والتجديد الفكري بلغةٍ معاصرة تعبر عن مدىٰ صلته بثقافة العلوم العربية الدينية والغربية، مما يؤكد فكرة التجديد عنده، فهو يستخدم كل التعبيرات التي تتناسب مع المشرق والمغرب، بألفاظ فلسفية قوية تحمل الحقيقة والواقع الملموسين، ويستعمل كُلاً في حينه مما يسعفه في التعبير عن الحدث أو الفكرة.

- **أولا : الذات المفردة (ومعنى الإثبات):**

يرىٰ إقبال أن الأنا / الذات لن تكون إلا فردية، وفيها يخلد معنىٰ الإثبات، وتتجلَّىٰ فيها الحياة التي يُولد منها الجمع، ووصفها بأنها جسم أو مجال طاقة أو كيان مادية تعمل من خلال التفرد الهادف كوحدة قوة، أو طاقة، أو إرادة.

إن " شعور الإنسان بذاته، وأنه غير العالم وغير الآخر، هو قانون الهوية الذي طالما تحدث عنه الفلاسفة، الأنا تساوي الأنا، قبل أن تكون الأنا تساوي غيرها"[(١)]. فالأنا أو الذات المفردة تسمو وتخلد بالعمل، يقول إقبال [(٢)]:

لـلـوُجـودِ زيـنـةٌ تُـدْعـىٰ " أنـا " رغـبـةٌ في الـذَّات بـرهـانٌ لـنـا

---

(١) محمد إقبال فيلسوف الذاتية، حسن حنفي، ص ٢٤.

(٢) ديوان رسالة الخلود، نقله إلىٰ العربية شعراً: حسين مجيب المصري، ٢/ ١٤٧.

فالذات المفردة/ الأنا تنهض بالحياة من كل جانب، كأنها جيوشٌ جرَّارة، وهكذا تتجزأ الذات ألف مرة ومرة، وتدفع الأفراد إلىٰ الظهور في مشاهدٍ كلِّيَّةٍ واسعة، وعندئذ تصبح غاية الفرد البحث عن مجد الذات المطلق(الأنا)، وتأكيد هذه الأنا بالسمو درجةً بعد درجةٍ، ومرحلةً بعد مرحلةٍ إلىٰ مستوياتها الرفيعة[1].

فيصف إقبال الذات المفردة بأنها جزء من كُلٍّ، وأنَّها الحياة، فيقول [2]:

حُرةٌ رهنُ قيودٍ، فطرتُهْ جزؤه بالكل حاطت قُوَّتُهْ

لكفاح دائم تنزُو قُواه هو يُسمىٰ الذاتَ أو يُسمىٰ الحياه

فـ"الذات المفردة القوية الناضجة تنسلك في الجماعة ولا تفنىٰ فيها"[3]، يقول إقبال مشيرا إلىٰ ذلك المعنىٰ [4]:

وأنا مثلُ شَقيقاتِ الفَلا مُفردٌ في بُهرَة الجمع خَلا

فـ" الذات هو الإنسان الكامل عند الصوفية، أو ما يسميه إقبال " الرجل العظيم"[5] يقول في ديوان "ضرب الكليم "، في مقطوعة تحمل عنوان "

---

(1) مقدمة ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ،جـ١ ، ص ٦٤.

(2) ديوان الأسرار والرموز، محمد إقبال، ترجمة: عبد الوهاب عزام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ٧٦.

(3) مقدمة ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ، جـ١ ، ص ٨٠.

(4) ديوان الأسرار والرموز، محمد إقبال، ترجمة: عبد الوهاب عزام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ٥٩.

(5) محمد إقبال فيلسوف الذاتية، حسن حنفي، ٥٨.

الرجل العظيم" [1]:

هـو في الـمـجـمـع خـالٍ ومـن الـحَشـد طـلـيـق
مـثـلُ شـمـع الـحـفـل، في الـ ـحفل وحيدٌ ورفيق
مثل شـمس الصـبح، فِكْرٌ فـيـه نـور وبـريـق
لـفـظـه حـرٌ يسـيـر لـكـن الـمـعـنىٰ دقـيـق

فالذات المفردة عنده تتمثل في ذات المسلم، فغير المسلم لا شيء، وعليه أن يعرف ذاته، لأنها مستمدة من الوحي، والوحي لا ينضب، فالمسلم – من وجهة نظره– سرُّ الكون وسرُّ الحياة، يسيطر عليها، تتيه فيه الآفاقُ، وهو فيها لا يتيه، فيه سرُّ إثبات الذات، وفي الكافر نفي الذات، فـ" الفرق بين الإيمان والكفر إثبات الذات "[2].

ويؤكد هذا المعنىٰ في ديوان ضرب الكليم" في مقطوعة بعنوان" الكافر والمؤمن"، فيقول:[3]

إنـمـا الـكـافـر حـيـرانُ لـه الآفـاق تـيـه
وأرىٰ الـمـؤمـن كـونـاً تـاهـت الآفـاق فـيـه

ويكرر هذا المعنىٰ ليُضفي علىٰ الفكرة قوة ومصداقية، فيقول[4]:

---

[1] ديوان ضرب الكليم، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ٢/ ١٠٣.

[2] محمد إقبال فيلسوف الذاتية، حسن حنفي، ص ٢٥.

[3] ديوان ضرب الكليم، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ٢/ ٤٢.

[4] ديوان الأسرار والرموز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ٨٦.

لا تحدُّ الأرضُ قلبَ المسلمِ لا يُرىٰ في تيهِ " أَنَىٰ وكمِ "
ليس للمسلم في الأرض عَطنْ حائرٌ في قلبه كلُّ وطنْ

وبموت الذات المفردة يُعرَّىٰ المسلمُ ، وتُسوِّغ له نفسُه- في الحرم- سفاسفَ الأمور، فطوَّعت له أن يأخذ ملابس الإحرام ليعيش بها، فيقول[1]:

مِن مماتِ الذَّات يُعرىٰ مسلما من ثيابٍ سادنُ البيتِ الحرام

فالعمل الحقيقي للكشف عن هذه الذات يجب أن يكون موضوع كل نشاط أو طاقة إنسانية، فيقول للربط بين ذات العبد وذات الله تعالىٰ، فليس بينهما تحوُّل[2]:

أنتَ عبدُ الله فالزمْ ليس للحُرِّ تحوُّلْ
ما عدا عِزَّ العبُوديَّـ ـةِ لله تسوُّلْ
سيِّدُ الأحرارِ عبدٌ حرم الله بذاتِهْ
فاحفظِ الذَّات وصُنْها إنَّها من عَتَباتِهْ

فالذات المفردة هي التي تسلك الحق ولا تتبع الباطل تملك الكون كله، فيقول[3]:

والمؤمنُ الحقُّ هذا الكونُ أجمعُه ميراثُه، وأنا – لولاك- برهاني

ويؤكد علىٰ إثبات الذات المفردة وقوتها، ويعني بها المسلم كعادته في

---

(1) ديوان ضرب الكليم، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ٢/ ٦٨.

(2) ديوان جناح جبريل، زهير ظاظا،جـ١، ص ٤٤٨.

(3) ديوان جناح جبريل، زهير ظاظا،جـ١، ص ٤٥٧.

دواوينه وفلسفته [1]:

كـنْ وحـيـداً ووحِّـدِ الله واكشِـــفْ سِـــحْـرَ ألـوانـنـا بـقـوِّة ذاتِـك

كُـن كـمـا الـمـوجُ كـلَّ حـيـنٍ تـراهُ يـدرسُ الشـــاطئَ الَّـذي يبتغيه

ويرىٰ الشـــاعر أن الـذات هي عين الحيـاة ومقصـــدهـا، إذا قَوِيَـتْ واستَحكمَتْ لم تَمُتْ، فيقول في ديوان" ضـرب الكليم " في قصـيدة بعنوان " الحياة الأبدية"[2]:

صـــدفٌ لنـا هـذه الحيـاة، وذاتُنـا كالقطر من نَيسـان في الصـدَفات

ما قيمةُ الصـــدف الذي لا يســتطيع يُـحـيـل قُـطْـرات إلـىٰ دُرَّات

إن صـــانـت الـذاتُ المتينـةُ نفسَـــهـا أعيـتْ علىٰ الأيَّـام كُـلَّ مَمَـات

فالواقعية هي التي تنطلق منها هذه الذات القائِمَة علىٰ الأرض، تحملها شـــخوصٌ ذاتَ تَكْوِيْنٍ مختلف، وشـــعور وحِسّ متباين، ومِن ثَمَّ حاولت الذاتُ أن تقدِّمَ تَصـوُّرًا لحقيقة الأيام، فجاء البيت الأخير ليؤكد المعنىٰ، فلا قيمة للصَّـــدفِ إذا لم يتحول إلىٰ دُرَرٍ وحُليٍّ، ولا قيمة للذات إذا لم تصـــن نفسها.

ودائما رغبة الذات المفردة أن تشـارك الذات الأم ، لذا " تجنح مجموعةٌ من الذوات الفرد بطبيعتها، وهي تســعىٰ نحو الرُّقيِّ والكمال إلىٰ الذوبان في " أنا " جماعية، وبذلك تخلق ذاتـًا لمجموعة تزداد تطورا واسعـًا شيئـًا بعد

---

[1] ديوان " جناح جبريل، زهير ظاظا ،جـ١، ص ٤٦٧ .

[2] ديوان ضرب الكليم ، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ٢/ ٣٤.

شيء، هذه اللَّاذات في المستوىٰ الشخصي تُكوِّن الذات في المستوىٰ الجماعي، وليس في ذلك تخريب للذوات الفردية، بل فيه ما يدعو إلىٰ دعمها وانسجامها"[1]، وهذه هي الذات المشتركة، التي نادىٰ بها إقبال ليخلق الوحدة ويضرب الأمثال للارتباط بين الذات الفرد والذات الأم ، فيقول [2]:

فَرْدُنا مِرآتُهُ أمَّتُهُ ... وكذا مرآتُها صورتُهُ

وإذا الواحدُ في الجمع نما ... كان كالقطرةِ صارت خِضْرِما

أفردِ اللفظَ من البيت ترىٰ ... جوهر المعنىٰ لديه انكسرا

تتشظَّىٰ الذات في أمَّتها ... لتُرىٰ الروضة من زهرتها

• ثانيا: الذات المشتركة / ذات الأمة (ومعنى النفي):

لا يمكن فهم مسار فكر إقبال والوظيفة العامة لأدبه بشكل مباشر، بل الرمزية والإيحاء والغموض من أهم مميزات شعره الفلسفي، فهو لم يكن بمعزل عن الأمة أو المشاركات السياسة لبلده ذات الأغلبية المسلمة، فالأمر الذي يمكن استشفافه هنا بسهولة؛ هو إصراره علىٰ الهوية المنفصلة للمسلمين عامة والهنود خاصة .

يقول في قصيدة " شكوىٰ" في ديوان " ضرب الكليم " يشكو فيها حال الهند التي كانت دُرَّةً وتاجًا، وما آلت إليه بعد الاستعمار الإنجليزي؛ مما

---

[1] مقدمة ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ، جـ١ ، ص ٦٨.

[2] ديوان الأسرار والرموز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ٧٥-٧٦.

يؤكد تمكنه من أفكاره ، فيقول [١]:

مستقبلَ الهندِ مَنْ يدري، وما بَرِحَتْ ... يا ويحها، دُرَّةً في التَّاج تُرتَهَنُ

دِهقانُها من ظلامِ اللَّحد مطَّرِحٌ ... ولم يزل مِزَقًا تحت الثرىٰ الكفَنُ

الجسمُ والرُّوح للباغين قد رُهنا ... لم يَبق في أرضها دارٌ ولا سَكَنُ

رَضِيْتَ رِقّاً لأوربة بلا أَنَفٍ ... فمنكَ شكواي لا منها، وبي حَزَنُ

ويخاطب أهل كشمير من شعره المنثور فيقول[٢]:

كشميرُ التي سمَّاها أهلُ النَّظر بالأمسِ إيرانَ الصغير

هوَ اليومَ بلدٌ خاضعٌ وفقير

وكانت هويتُه الدعوةَ عام ١٩٣٠م لتأسيس كيان سياسي إسلامي منفصل[٣]، فهو يرىٰ أن المشرق مركزُ الأمة / وهويةُ الذات المشتركة [٤]:

موتُ الشعوب بُعدُها ... عن جَذَبَات المركز

والذاتُ إما رُكزت ... فللمعالي تُركز

يا شمسُ من سرادق الـ ... ـمشرق هيَّا فابرُزي

واكسي جبالي حُلَّةً ... تُزهَىٰ بلون القرمزي

---

(١) ديوان ضرب الكليم، محمد إقبال، ترجمة: عبد الوهاب عزام ، ٢/ ١١٦. والقصيدة من بحر البسيط علىٰ النظم العمودي، مع اضطرابٍ في الشطر الأول من البيت الرابع.

(٢) ديوان هدية الحجاز، ترجمة: حسين مجيب المصري ، ٢/ ٥٣٥.

(٣) ينظر: منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين ،مصطفىٰ محمد حلمي ، ص ٢٧٥.

(٤) ديوان ضرب الكليم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ١٢١.

ويقول في تخاذل وخنوع ذات الأمة في عصرها الحاضر [1]:

يَـقْـظَـةُ الـذَّاتِ لا أرَاهـا بِـدَيْـرٍ ... لَا ولَا تُجْتَلَىٰ لَـدىٰ المِحْرَابِ

إنَّ روحَ الشُّـعُوبِ فِي الشَّـرقِ غَافٍ ... مِن سُـمُومِ التِّريَاقِ، رَهْنُ غِيَابِ

ويقول عن وحدة ذات الأمة [2] :

بـوحـدة الأفـكـار تـحـيـا أمَّـةٌ ... ودونها الإلهام يُلْفَىٰ مُلحِدا

لا تُـحـفـظ الـوحـدةُ إلا بـالـقُـوَىٰ ... لم يُفلح العقلُ هنا ولا اهتدىٰ

فالشاعر يرىٰ أن ذات الأمة الإسلامية انفرط عقدُها، ولم يعد بحرُ العرب يموج بأحداث التاريخ كما كان من قبل، ليس فيه هياج اليوم فيخلط به هذا الموج الذي في صدره، معتمداً علىٰ الاستفهام المكاني، منكراً المكان الذي يؤول إليه، فيقول[3] :

أرىٰ الملة البيضاء بُدِّد نظمُها ... فمسلمك انظرْ حاله ، أين يذهب؟

وليس ببحر العُرب لـذَّةَ ثـورةٍ ... وفي الصدر موج غاله، أين يذهب؟

ولقد " انتشر في زماننا مفهوم التقارب والتضامن، وتقدَّمت الفكرة القائلة بأن في إمكان مجموعات كبرىٰ من الناس أن تتوحَّد، وأن تصون أصالة بعض الوحدات الصغيرة المتجمعة، وازدادت الدَّعوة إلىٰ صيانة

---

(1) ديوان ضرب الكليم، محمد إقبال، ترجمة: عبد الوهاب عزام ،٢/ ١٩ .المقطوعة من بحر الخفيف، وهو يجيد النظم علىٰ البحور القصيرة والمجزوءة؛ لِخفَّتها وجرسها الموسيقي المحبب لدىٰ الأسماع.

(2) ديوان ضرب الكليم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، ص ٤٠ .

(3) السابق ، ص ٤٧ .

قيمها الذاتية "[1].

فهو يرىٰ أن المركز المحسوس للذات الأم، مقصور علىٰ بيت الله الحرام، فيقول[2]:

إنما المركز روح الدائرة نقطة، فيها محيط، ضامرة
ومن المركز للقوم نظام ومن المركز للقوم دوام
نقطة المركز منَّا الحرمُ لحنُنا والوجدُ فينا الحرمُ
نَفَسٌ في صدرنا يتَّقد روحنا الغالي، ونحن الجسد

وتموت ذاتُ الأمة بالخمول وعدم التقدم والسعي نحو الصدارة والتطور، فيقول في مقطوعة بعنوان " موت الذات " [3]:

مِن مماتِ الذّات في العُرْب خُمودٌ ولدىٰ العُجْم عروقٌ وعظامْ

ولقد شكا حالَ الأمة لله تعالىٰ كثيراً – التي لا يرىٰ منها طائلاً– "، فيقول في نهاية قصيدة الشكوىٰ في ديوان " صلصلة الجرس" [4]:

يا ليتَ قومي يسمعونَ شِكايةً هي في ضميري صرخةُ الوِجْدانِ

• ثالثا: الذات المُطلقة (ذات الامتلاك) / ذات الله تعالى(ومعنى: النفي والإثبات)

يرمز إقبال في أشعاره إلىٰ الله تعالىٰ بـــ(الروح)، التي هي سرُّ الكون والوجود، فيقول في قصيدة حوارية عبارة عن سؤال وجواب بين " جهان دست " والشاعر، فيسأل جهانُ ويجيب الشاعر، لِيُعبِّرَ بحوارِه عن الواقعِ

---

(1) مقدمة ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري، جـ١ ، ص ٣٩.

(2) ديوان الأسرار والرموز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ٩٧.

(3) ديوان ضرب الكليم، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ٢/ ٦٨.

(4) مقدمة ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ، جـ١، ص ٩٣-١٠٠.

الخارجي، والتحرر النَّفْسِي الذي يعتمل في أعماقه:[1]

قال: موتُ العقل؟ قلتُ: تركُ فِكْرٍ قال: موتُ القلب؟ قلتُ: تركُ ذِكرٍ

قال: جسم؟ قلتُ: تُرْبٌ قد تراه قال: روح؟ قلتُ: رمزٌ للإله

يقول د. حنفي:" الإله ذات الكون، وذات الكون الإله "[2]، فالكون في نظر إقبال، بكل أشكال وجوده وخلقه، يتماسك بفعل روحٍ أساسية شاملة لكلِّ شيء، أو علىٰ الصحيح ينشأ منها كلُّ شيء، وتسمَّىٰ (خودي) أو (شودي) وهذا ما يُعرف بـ(الذات) في اللغة العربية[3]. فـ" إقبالُ وحَّد بين الذات الكونية وبين الله تعالىٰ "[4].

يتضح من القول السابق أن الكون ليس كائنًا يقف منفصلاً عن الذات الإلهية وخارجها، بل يُعتبرُ الجانبَ " القابل للقياس" الملموس حسيًا لحياة الإله -كما يبدو عند د. حنفي-، ولكن كي يكون الكلام أكثر دقةً نقول: الكون أو الطبيعة " كائن حي" ينمو ولكن ليس له حدود واضحة تتعلق ببدايته أو نهايته إلا في علم الله تعالي الغيبي؛ لهذا يرتبط بذات الله تعالىٰ دون قيد بحياة أو ممات، فللَّهِ تعالىٰ الذات الكاملة الأعظم شمولاً من أي شيء علىٰ الإطلاق دون قيد .

---

(1) ديوان رسالة الخلود، حسين مجيب المصري، ٢/ ١٦٤.

(2) محمد إقبال فيلسوف الذاتية، حسن حنفي ، ص ٣٩.

(3) مقدمة ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري، جـ١ ، ص ٦٣.

(4) السابق ، جـ١ ، ص ٧٢.

يشير إلىٰ ذات الله تعالىٰ المرتبطة بالتوحيد، فيقول في قصيدة شكوىٰ [1]:

مَنْ كـان يَهتِفُ بـاســم ذاتِـكَ قَبْلَنَـا مَنْ كـان يَـدْعو الواحـدَ القهَّـارا

هَـل أَعْـلَـنَ الـتَّـوْحِـيـدَ داعٍ قَـبْـلَـنَـا وهَدَىٰ الشُّــعُوبَ إليكَ والأَنظارا

فإقبال يرىٰ أن بين " ذات الله " تعالىٰ والكون ربا طًا، فوجود الكون متمثل فيه للعيان ذاتُ الله تعالىٰ، فيقول في مقطوعة بعنوان " صــريع الفرنج " من ديوان ضرب الكليم[2]:

ووجــودُ الإلــه عــنــدك ريــبٌ وأرىٰ الـريـبَ في وجـودك أنـتـا

إنمـا الكونُ جوهرُ " الـذات" يُجلَىٰ فـانـظـرْ أيّ جـوهـرٍ قـد دفـنـتـا

وصــحيحٌ أن الأحـداثَ كمُعظمِ الأحـداث الأُخرىٰ تعبرُ عن تجـاربٍ إِنسـانيَّةٍ معيَّنةٍ، ولكنها تختلف من شـاعر لشـاعر من خلال مضـمون النص، فإقبال يكشـف فكراً جديداَ، وسـراً متعمَّدا من أسـرار الكون، يظهر ذلك في عبارته (إنما الكونُ جوهرُ الذات).

فهو يرىٰ – في هذين البيتين– أن إنكار الذات نتيجةُ الانبهار بالغرب، " كما تجلىٰ لدىٰ صــريعُ الفرنج، الذي نســي ذاته، وتحولت ذاته إلىٰ هيكل خالٍ، يشــكُّ في الله وهو يشــك في ذاته، الكون جوهر الذات ينكشــف فيها، والمغترب يدفن ذاته في غيره "[3].

---

[1] مقدمة ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ، جـ١ ، ص ٩٤.

[2] ديوان ضرب الكليم، ترجمة: عبد الوهاب عزام ، ٢/ ٣٦.

[3] محمد إقبال فيلسوف الذاتية، حسن حنفي ، ص ٣٩٨-٣٩٩.

ويكرر معنىٰ الارتباط بين الذات العليا وذات الكون مرة ثانية فيقول في ديوان " الأسرار والرموز" في قصيدة " دعاء"[1]:

أنت في الكَوْنِ كروحٍ مُستَسِرّ روحُنا أنت، ومنَّا تَستتر
إنَّنا نشكو تصاريفَ القضاءْ أنت تُغلي السِّعْرَ والأيدي خَلاءْ

ومما يؤخذ علىٰ إقبال جرأتُه اللفظية في مثنوياته الشعرية، فاستخدامه لفظ (أنت) مع الله تعالىٰ يجعل القارئ غير راضٍ عن ذلك، وشكوته من الواجبات العظيمة ليؤكد أن أسبابها لم تعد في يديه، غير مقنع أيضاً.

ويقول أيضاً " في ديوان جناح جبريل" في قصيدة بعنوان " أوامر الله للملائكة"[2]:

قوموا إلىٰ الكون الغريق وأطلقوا فقراءَه فيه علىٰ الأمراء
أيبدِّلون مساجدي بقصورهم جَوراً علىٰ خلْقي وهم أُجَرائي؟
قوموا إليهم وانفخوا من روحنا فيهم ولا تأسوا علىٰ أسراره

ويشبه الشاعرُ ذات الله تعالىٰ باللُّجة التي لا ساحل لها، مستحضراً المقارنة بينه وبين الله تعالىٰ(أنت – أنا) وفي هذا الأسلوب مغالطة، ولعلَّ هذا لغلبةِ تفكيره الفلسفي علىٰ أسلوبه الديني، – فالفلاسفة وأصحاب علم الكلام هم الذين يحملون في أسلوبهم هذه الجرأة – مما جعله يخاطب ذات الله تعالىٰ مجرداً من السمو والعلو، مع ما تحمله نفسه من الإيمان والخوف

---

[1] ديوان الأسرار والرموز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ٥٧.

[2] ديوان جناح جبريل ، زهير ظاظا،١/ ٤٩٣.

علىٰ الإسلام، فيقول[1]:

أنت كاللُّجة لا ساحلَ لك وأنا الجدولُ لا لُجَّة لي

ويكرر هذا المعنىٰ الذي يدل علىٰ خلود الذات، فيقول في وصيته لابنه " جاويد"[2]:

أبُنَيَّ! لحنُ الذَّات في أعماقنا باقٍ يدلُّ علىٰ خلود حياتِهِ

فـ"السفر من الذات إلىٰ الذات، من الذات الإنسان إلىٰ الذات الإله، من " خودي" إلىٰ "خودا"، الإنسان الكامل ليس حقيقة معطاة سلفًا بل هو قصد الإنسان المتعين وغايته، فالإنسان يحصل علىٰ الكمال بتجاوز ذاته الدنيا إلىٰ ذاته العليا، والتحول من الشك إلىٰ اليقين، وفي العلاقة المتبادلة بين الذوات تتم الرؤية بينهما دون أن تفقد الذات الإنسانية حضورها أمام الذات الإلهية"[3] يقول:[4]

---

(1) ديوان جناح جبريل، زهير ظاظا،١/ ٤٠٨. جاء في شرح هذا البيت في حاشية الصفحة المذكورة:" يا للفضيحة أنا كالجدول، أيًّا كان الذي سيمرُّ علىٰ ضفافة فإنه من غير جهد سيميز بين الحصىٰ الخضراء والزرقاء، أما أنت فكاللجة، حتىٰ السماء إذا نظرت إليها فلن تجد أكثر من مرآةٍ تعكس زرقتها.

(2) السابق، ١/ ٥٠٤.

(3) محمد إقبال فيلسوف الذاتية، حسن حنفي، ص ٣٥-٣٦.

(4) زبور العجم، نقله إلىٰ العربية شعراً/ حسين مجيب المصري، ضمن ديوان محمد إقبال، إعداد: الغوري، ١/ ٣٩٣.

ودومـاً كـنْ لـذاتـك في الـكـمـيـن ومـن شـــكٍّ ففـرّ إلـىٰ الـيـقـيـن

بـذات الـحـقِّ تـخـلـو آنـذاكـا تـرىٰ مـولاك والـمـولـىٰ يـراكـا

فمعنىٰ " لا إله"- عند إقبال-، يحمل معنىٰ ذات الله المالكة، فيه روح الله التي منها أرواحنا وأسرارنا وأفكارنا، فَكُلُّنا لله تعالىٰ، فيقول[1]:

" لا إلـه " الـروحُ في أمـتـنـا " لا إلـه" الـلـحـن في نـغـمـتـنـا

" لا إلـه" الســرُّ في أســـرارنـا " لا إلـه " الســمط من أفكـارنـا

ويشـير إلىٰ تفرُّد الله تعالىٰ بذاته، رافضـاً نظرية الحلول التي نادي بها الصوفية[2]:

أنـت مـنـه أنـت حـقًّـا، وأنـا أنـا، وهو الفرد لا يرضـىٰ ثُنا

ويـخـلـقُ الـنـفـسَ ويَـذرو ويُـقـرّ ذو دلالٍ في خضـــوع مســـتـتـر

وكثيراً ما طرح إقبالُ أسئلةً في دواوينه الشعرية، وإن كان الذوق الديني لا يقبل مثل هذه التسـاؤلات؛ لأنها تُعد خروجا عن الأدب مع الذات العليا، ولكن كم من عذر ملموس لإقبال، فعُجمته، ودراسـته للفلسـفة، واختلاطه بالغرب، جعلنا نعتبر تساؤلاته نوعا من الاستفهام عمَّا غاب عنه، أو من قبيل " ليطمئن قلبي"، أو للرد علىٰ المتحـذلقين أو المتزمِّتين، فيقول مثلا مخاطبـاً الله تعالىٰ[3]:

---

(1) ديوان الأسرار والرموز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ٧٨.

(2) ديوان الأسرار والرموز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ٧٦.

(3) ديوان رسالة الخلود، نقله إلىٰ العربية شعراً: حسين مجيب المصري ٢/ ٣٢٠.

مَـنْ أنـا مَـنْ أنـتَ أيـنَ الـعـالَـمُ طـالَ بُـعْـدٌ بـيـنـنـا ! لا أعْـلَـمُ
قـلْ لـمـاذا كُـنْـتَ فِي أسْـــرِ الـقَـدَرْ لا تـمـوتُ وأمـوتُ مـا الـخَـبَـرْ؟

لقد حظيت قضـــية الذات عند إقبال باهتمام بالغ؛ لتنوع اتجاهاتها التي ســـلكها ولإيجاد مناخ علمي مناســـب يوقظ ذهن الأمة والفرد، محاولاً النهوض بالوعي الديني.

كما أن تركيب المعاني عند إقبال صـــحيح لم يدخله خلط أو غلط، وإذا نظرنا بعين الإنصـــاف نجد غيابًا في الخيال والصـــورة وفي تصـــوير الحالة النفســـية ؛ وذلك لأمور: الأول: أن شـــعره عبارة عن مقطوعات ومثنويات وجزئيات ونتف لا تكتمل الصـــورة بداخلها، الثاني: أن شـــعره قريب من المذهب الفلسـفي أو التعليمي مع وجود بعض الشـعر القصـصـي والشـعر التفسـيري(إذا صـح التعبير)، لبعض سـور القرآن الكريم، الثالث: انشـغاله بالقضـــية الخارجية (الذات)، مما أدَّىٰ إلىٰ غياب الاتجاه الوجداني، الرابع: كون شـــعره مترجمًا من لغاتٍ آخرىٰ لا علاقة لها بمجازات اللغة العربية وزخرفتها.

ومن ثم اتســـعت معانيه إلىٰ معان جديدة تمثلت في الفكر الفلســـفي، والتجديد الديني، والدفاع الســـياســـي والأخلاقي، والأحقية بالخلافة الإسلامية، والقدرة علىٰ الحفاظ علىٰ القيم النبيلة،... وما شاكل ذلك.

❁❁❁❁❁

المبحث الثالث : كمال الذات بين النفي والإثبات

لقد اهتم إقبال بفكرة إثبات الذات ونفيها، وما يتبعها من كمال ونقص وقوة وضعف، وسرد فيها المعاني التي تتسق مع أفكاره، كما عمد إلىٰ الأفكار التي تحمل صدق التعبير مع حسن التعليل.

" إن هدف إقبال في بناء فلسفته هو إثبات الذات وتحقيق وجودها وتحصينها؛ لكي تبلغ أعلىٰ المنازل، وتصل إلىٰ درجة الكمال، متمثلة في مرتبة (الإنسان الكامل)، وليس بإماتتها وإفنائها في الذات الإلهية، فقد رفض إقبال هذا الرأي الذي جاء به أصحاب وحدة الوجود من أتباع محي الدين بن عربي(ت ٦٣٨ هـ)، وسبينوزا (ت ١٦٧٧ م)، وهيجل (ت ١٨٣١م)"[(١)].

فالمراد بالجسم والشخص عند ابن الأثيرهو إثبات الذات،" قَالَ ابنُ الأَثِير: الشَّخْصُ: كُلُّ جِسم لَهُ ارْتفَاعٌ وظُهُورٌ. والمُرادُ بِهِ إِثْبَاتُ الذَّاتِ"[(٢)].وإنكار الذَّات يعني: تضحية الشّخصُ برغباته[(٣)].

وجاء في موضع آخر " إنكار الذَّات: اجتناب الأثرة والتَّضحية في سبيل الآخرين"[(٤)].

وهذا ما قصده إقبال في أشعاره وفلسفته، فليس ضد إثبات الذات

---

(١) فلسفة الذات في فكر محمد إقبال، رائد جبار كاظم، ص ٨٧.

(٢) تاج العروس للزبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية ، مادة (شخص) ج ١٨/ ٧.

(٣) اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، ١/ ٨٠٠.

(٤) السابق ، ٣/ ٢٢٨١.

هو نفيها أو فناؤها، بل المقصـــود نفي الفردية وإثبات الجماعية، فهو يعني بالإثبات كمال الفرد، وبالنفي كمال الكُلِّ وإيثار الجمع علىٰ النفس، كما يريد التأليف بين الفرد والجمع، ويدعو إلىٰ مجتمع متكامل بعيد عن الأثرة ويدعو إلىٰ الإيثار.

يقول د. حنفي :" إن فناء الذات ليس نقيض إثبات الذات بل تحول من الفرد إلىٰ الجماعة، من الذاتية الفردية إلىٰ الذاتية الجماعية أي الأمة"[1].

والوصـــول إلىٰ حقيقة الذات يتطلب معارك جســـام وصـــراعات طوال، فالإنسان إذا لم يشعر بذاته فهو في ضعف وخور، يقول [2]:

قُـوَّة الـذات قـوةُ الـذَّات ســـرٌّ يَهَـبُ النَّصـــرَ في الحيـاة لأعزَلْ

خَوَرُ الـذَّات يجعـل السَّـــيف عبئـًا ويـرىٰ في الـجبـال حبَّـة خـردلْ

ويقول إُقبال في (قضـــية إثبات الذات ونفيها) في مقاله إلىٰ الأســـتاذ نكلســـون:" الحياة كلها فردية، وليس للحياة الكلية وجود خارجي، وحيثما تجلت الحياة تجلت في شخص أو فرد أو شيء، والخالق كذلك فرد، ولكنه أوحد لا مثل له، وظاهرٌ أن هذا التصور للكائنات يخالف ما ذهب إليه شرَّاح فلســـفة (هيكل) من محدثي الإنجليز، ويخالف أصـــحاب وحدة الوجود الذين يرون أن مقصـــد حياة الإنســـان: أن يفني نفســـه في الحياة المطلقة أو" أنا" المطلق، كما تفنىٰ القطرة في البحر. أرىٰ أن هدف الإنســـان الديني

---

[1] محمد إقبال فيلسوف الذاتية، حسن حنفي، ص ٢١.

[2] ديوان جناح جبريل ، زهير ظاظا، جـ١، ص ٤٤٨.

والأخلاقي، إثبات ذاته لا نفيها ، وعلىٰ قدر تحقيق انفراده أو وحدته، يقرب من هذا الهدف، قال الرسول(ﷺ):" تخلَّقوا بأخلاق الله "[1]، فكلما شابه الإنسان هذه الذات الوحيدة كان هو كذلك فرداً بغير مثيل، وتنقص فرديته- أي ذاته – علىٰ قدر بعده من الخالق، والإنسان الكامل هو الأقرب إلىٰ الله تعالىٰ، ولكن ليس القصد من هذا القرب أن يفني وجوده في وجود الله – كما تقول فلسفة الإشراق- بل هو علىٰ عكس هذا يمثل الخالق نفسه "[2].

وإضافةً إلىٰ ما قاله إقبال في الرد علىٰ محدثي الإنجليز، وأصحاب وحدة الوجود : فإنه لا يجوز إطلاق لفظ " الأنا " سواء كانت موصوفة أو مجردة علىٰ الله تعالىٰ؛ لأنها تقود إلىٰ معنىٰ " شخص"، والشخص لا مانع من مشاركته، والله تعالىٰ ليس كمثله شيء، تفرُّداً وذاتاً.

ويضع إقبال فلسفته لإثبات الذات ونفيها في قوله [3]:

أنت لم تعرف خودي من بيخودي أنت لا ريبَ من الشك رَدِي

---

[1] لا أصل له في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، للشيخ الألباني ، دار المعارف – الرياض ، ١٩٩٢م ، رقم (٢٨٢٢).ج٦/ ٣٤٦.وذكره الإمام الغزالي في " إحياء علوم الدين ، دار المعرفة – بيروت ، ج٤/ ٣٠٦ ، وقال إنه بمعنىٰ: اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة علىٰ الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلىٰ الحق ومنعهم من الباطل إلىٰ غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ لا بمعنىٰ طلب القرب بالمكان بل بالصفات

[2] ديوان الأسرار والرموز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ١٩ .

[3] السابق ، ص ٧٦.

فـ(خودي) هي إثبات الذات، و(بيخودي) هي نفي الذات، فالإنسان إذا لم يميز بينهما، فهو لا ريب قد وقع في شك، وتشابه عليه أمرهما.

يقول في تحقق وجود الذات ونفيها[1]:

إنْ فَقَدْتَ الـذَّاتَ حَقَّقْتَ الفَنَاءْ والو جودُ كانَ لِلذَّاتِ العَطَاءْ

أولاً: مراحل كمال الذات ونقصها :

ولكي تكتمل الحياة – كما يرىٰ إقبال- لابدَّ لها من ذوات حقيقية في الكائنات، وذات فردية تسعىٰ إلىٰ مقاصد الحياة الكلية ، فالهدف الأسمىٰ من الحياة هو (كمال الذات)، ولا تكتمل الذات إلا بثلاث مراحل، ولا تنتقص الذات إلا بفقدها ونقصها:

١) **الطاعة** : وتعني طاعة الإنسان لأوامر الله تعالىٰ واجتنابه لنواهيه.

٢) **ضبط النفس**: وهو التحلي بأفضل الأخلاق والسعي والاجتهاد .

٣) **النيابة الإلهية**: وهي نيابة الله تعالىٰ في الأرض لحفظ الحق[2]

وهذا يعني أن كل مقصد للحياة مخالف لمقاصد الله تعالىٰ فيها فهو موتٌ للذات وضعفها، وكل مقصد يتفق مع مقاصد الله تعالىٰ للحياة فهو إثباتٌ للذات وكمالها.

- **المرحلة الأولى** : الطاعة: وهي الانقياد التام لأوامر الله تعالىٰ، وذلك يستلزم إنشاء مجتمعٍ علىٰ النظام الذي جاء به القران الكريم[3].

---

(١) ديوان رسالة الخلود، نقله إلىٰ العربية شعراً: حسين مجيب المصري، ٢/ ٢٩١.

(٢) ديوان الأسرار والرموز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ١٩.

(٣) ديوان ضرب الكليم، ترجمة: عبد الوهاب عزام،٢/ ١٤ .

يقول إقبال في الطاعة من ديوان الأسرار والرموز[1]:

أُلـفَـة الـكـدِّ شـــعـارُ الـجـمـلِ ... شـــيمـةُ الصـــبر وَقـارُ الجمـل
فـاحـمـلِ الـفَـرض قـويّـًا لا تـهـابْ ... وارجوَنْ مَن عنده حســن المآبْ
اجـهـدن في طـاعـة يـا ذا الـخســارْ ... فمن الجبر ســيبدو الاختيارْ
بـامـتـثـال الأمـر يـعـلـو مَـن رســبْ ... وهَوىٰ الطـاغي ولو كـان اللهـبْ
سَـــخَّـــرَ الأفـلاكَ في هـــمَّـــتـــه ... مَن ثوىٰ في القَيـد من شِـــرْعَتِه
ارجـعـنْ يـا حُـرَّ دُســـتـورٍ قـديـمْ ... زَيِّنَنْ رِجلـك بـالقيـد الوســيمْ
شِـــدَّةً في شـــرعـنـا لا تشـــكـوَنْ ... وحـدودَ المصـــطفىٰ لا تعـدُون

تَطرَّقَ الشاعرُ في هذه الأبيات السابقة إلىٰ المعاني والأفكار التي تحمل معنىٰ الطاعة دون طَرْقِ باب الإغراق في المبالغات أو الولع بالخروج علىٰ المألوف بل أسعفته الدلائل الدينية دون نزوع إلىٰ التهويل، فالإنسان خُلق في كَبَدٍ لا يُزيِّنُه إلا التحلي بالصبر والوقار، متحمِّلاً المشاق والمتاعب راجيًا حسنَ المآب، وعليه الاجتهاد في الطاعة والأعمال، فبالامتثال لأوامر الله تعالىٰ تعلو الهمم، وبعدم اجتناب نواهيه يخسر الإنسان ويطغىٰ، ويضرب الشاعرُ الأمثالَ بالأفلاك المسخَّرة لسير الأحياء والأشياء، فعلىٰ المسلم الالتزام والامتثال بالشرع واحتمال شدته، فلا يسعد دونه، وكونه حُرّاً باتباع دستوره وشريعته القديمة، وإن كان القيدُ في رِجليه، ففي هذا القيد حريته لا عبوديته، ولا يشكُونَّ من شدته، ولا يتعدينَّ حدود الله ومصطفاه.

---

[1] ديوان الأسرار والرموز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ٤١.

- **المرحلة الثانية**: ضبط النفس: ليس المراد بضبط النفس القضاء أو الضغط علىٰ الشهوات، بل مجرد " كظمها " أي: تغيير مجراها، وتحويل وجهتها، بحيث يتمُّ التوازن بينها.[١].

يقول إقبال في ضبط النفس لتحقيق كمال الذات [٢]:

جَمَلٌ نفسُك تربو بالعلَفْ ... في إباءٍ وعنادٍ وصلَفْ

فكن الحرَّ وقُدْها بزمامْ ... تبلغن من ضبطها أعلىٰ مَقامْ

كلُّ من في نفسه لا يحكمُ ... هو في حُكم سواه مُرغَمُ

من يمسَّكْ بعصًا من " لا إله " ... فلتحطِّمْ طِلْسمَ الخوفِ يداه

كلُّ مَن بالحق أحيا نفسَهُ ... لا ترىٰ الباطلَ يُحني رأسَهُ

ليس يدنو الخوفُ منه أبدا ... ليس غيرَ الله يخشىٰ أحدا

كل مَن موطنه إقليم " لا " ... من قيود الزوج والوُلد خلا

اقوَ يا مؤمنُ بالله القويّ ... تحكُمَن في ذلك البَكر الأبيّ

في هذه الأبيات رمز الشاعر للذات بالجَمَلِ في الإباء والعناد والتَّكبُّر، فالحُرُّ هو الذي يقود زمام نفسه؛ ليصل بها إلىٰ أعلىٰ الدرجات والمقامات، ومَن لا يستطيع أن يحكم ذاتَه لا يستطيع أن يحكم غيره بل هو مُرغمٌ علىٰ اتباع الآخرين، فعصا التوحيد وهي،" لا إله إلا الله" ، لابدَّ أن يستمسك بها كل من أراد النجاة، فهي عصا موسىٰ التي تحطم كل طلاسم الخوف وتبطل

---

[١] ديوان ضرب الكليم، ترجمة: عبد الوهاب عزام،٢/ ١٥ .

[٢] ديوان الأسرار والرموز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ٤٢ .

السحر، وعلىٰ كُلِّ حُرٍّ أن يتبع الحق لكي يظل مرفوع الهامة، ولا يدنو منه الخوف، ولا يخشَىٰ إلا الله تعالىٰ، ويشير الشاعر بـ" لا " لنفي كل ما سوىٰ الله تعالىٰ من الزوجة والولد وغيرهما، فالله هو القوي، ويُعاود الشاعر مسايرة المجاز فيرمز بالبكر الأبِيِّ – وهو الجَمَلُ الفَتِيُّ– إلىٰ الجسد القوي الذي يقوىٰ بذات الله تعالىٰ غير ذليل ولا عَصِيٍّ .

- المرحلة الثالثة: النيابة الإلهية : هي القوة التنفيذية التي تتولَّىٰ إجراء حدود الله (أحكام القرآن) في العالم، (ولا تعني نيابةُ الله تعالىٰ : الحلولَ محلّ الله؛ لأن ذلك يستلزم خلوَّ المحل، وانعدام شاغله أوَّلاً)"[1]، وهذا محال بالنسبة لله جلَّ في علاه.

يقول إقبال في مقاله إلىٰ نكلسون:" النيابة الإلهية في هذه الدنيا هي أعلىٰ درجات الرقي الإنساني، ونائب الحق –الله–، خليفة الله في الأرض، وهو أكمل ذات تطمح إليها الإنسانية، وهو معراج الحياة الروحي، وأول شرط لظهور نائب الحق أن ترقىٰ الإنسانية في جانبيها الروحي والجسمي؛ فإن ارتقاء الإنسانية يقتضي ظهور أمة مثالية يتجلَّىٰ في أفرادها –جُملةً – هذا التوحيد الذاتي، وتصلح لأن يظهر فيها نائب الحق"[2].

يقول إقبال في النيابة الإلهية وهي أعلىٰ درجات اكتمال الذات الإنسانية[3]:

---

(1) ديوان ضرب الكليم، ترجمة: عبد الوهاب عزام،٢/ ١٥ .

(2) ديوان الأسرار والرموز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ٢١.

(3) السابق ، ص ٤٣.

إن خَطمتَ الصعبَ قُدْتَ العالَمَا ... نافذَ الأمر عليه حَكمَا
مشرقَا في الأرض ما دار الفلكْ ... فترىٰ المُلك الذي يخلُد لكْ
نائب الحق علىٰ الأرض سعيدْ ... حكمُه في الكون خُلدٌ لا يبيدْ
هو بالجزء وبالكل خبيرْ ... وبأمر الله في الأرض أميرْ
في فسيح الأرض يمضي طاويا ... عزمه، هذا البساط الباليا
هو في الناس بشير ونذيرْ ... وهْو جُنديٌّ وراعٍ وأميرْ
مقصدٌ من " علَّم الأسما " هُوه ... سرُّ" سبحان الذي أسْرَىٰ" هُوَه
مُحضِرٌ من تحته طرفُ الزمانْ ... حينما يمسك منه بالعِنان
يبعثُ الأرواحَ منه قولُ " قم " ... وهي في أبدانِها مثلُ الرمم
ذاتَه تتبعُ ذات العالَم ... سطوةٌ فيه نجاةُ العالَم

يعتمد الشاعر في هذه الأبيات علىٰ المعاني القرآنية؛ لتوطيد أفكاره، وحركية معانيه، وهي سمة بارزة في معظم أشعاره ، كما يستعير الجملَ صعب الانقياد إلا بالخِطام الذي يكون في أنفه؛ ليسهل انقياده، للذات/ الأنا القائد في تنفيذ الأوامر في مشارق الأرض ومغاربها؛ فيخلُد له الملك، وتنقاد له الفيافي والأفلاك؛ لأنه النيابة الإلهية في الأرض الذي علم دقائق الأمور وعظيمها، يسير في الأرض بكل عزم ومضاء، بشير ونذير للناس مع القوة والرعاية والقيادة، يعدو تحته حِصانُ الزمان سريعًا منقاداً إلىٰ مقصده، إن قال " قم " انبعثت الأرواحُ من قبور الأبدان، تسير في هديه الذاتُ الأم / ذات العالم.

ويقول إقبال في صفات الإنسان الكامل النائب عن الحق الإلهي [1]:

أنـت يـا فـارسَ طِـرف الـزمـنِ! أنـت يـا نـوراً لـعـيـن الـمـمـكـن
مـوكـبَ الإنشـــاء هـيَّـا زيَّـنِ وتـمـكـنْ في ســـواد الأعْـيُـنِ
قـم فسـكِّـن من ضـجـيـج الأمـمِ واملأ الآذان زهـر الـنـغَـمِ
جـدِّدَن في الـنـاس قـانـون الإخـاءْ وأدرِهـا كـأسَ حـبٍّ وصـفـاءْ
أبـلـغ الـنـاس رسـالاتِ الســلامْ وأعـدْ في الأرض أيـام الـوئـامْ
مـن بـنـي الإنســان أنـت الأمـلُ أنـت من ركـب الحيـاة المنزلُ
أذْبـلَـتْ كـفُّ الـخـريـف الشـجـرا فـاغـدُ في الروض ربيعـًا نضِـرا
نَحنُ مِن فَيْضـك نَسْـموا للقُلَـلْ في جِهَادِ الكونِ نَمْضِـي كالشُّـغلْ

ويرىٰ أن المسلم هو نائب الحق ووكيل الله في الأرض فيقول في قصيدة طويلة بعنوان " تنافر الجماعة[2]:

أيُّـهـا الـمسـلـمُ يـا مَـنْ خُـلـقـا لِـيَـكُـوْنَ الـحـقُّ فـيـه خُـلُـقـا
انهضـنْ يـا صـاح بـالعـبءِ الثَّقيل أنـت في الأرضِ عـن الله وكـيـل

❁❁❁❁❁

---

(1) ديوان الأسرار والرموز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، ص ٤٣-٤٤.

(2) ديوان رسالة الشرق، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ضمن ديوان محمد إقبال ، إعداد: سيد الغوري ١/ ٣٦٣.

ثانياً: عوامل قوة الذات وضعفها:

تنمو الذات (أو الأنا) من خلال قوتها أو تطلعاتها الأكثر شمولا وتوازنـًا وتميزاً، التي تتناسب مع الواقع الخارجي الذي يتوافق مع رغبتها، كما يتألف الواقع من صراع تنافسي بين الذوات قد يؤدي إلىٰ البُغض أو العنف، ولكن في نهاية المطاف الغرض منه " كمال الذات"، مع ما يصْحبُها من "حب" أو "عشق" أو "رغبة".

ولقد ذكر د. كاظم أن هناك أهدافـًا تقوِّي الذات وتدعو إلىٰ كمالها، وأهدافـًا تضعفها وتقف دون كمالها، فمن الأهداف التي تقويها:

(الحب والعشق ، والفقر: وهو خلاص النفس من قيد التملُّك، والشجاعة : وهي الشجاعة الروحية والمعنوية، والنشاط الخلَّاق) وما يضعف الذات يتمثل في :(الخوف ، والتسوُّل، والعبودية، وإنكار النفس في إذلالها)[1]، ومن يرغب في الاستزادة فليرجع إلىٰ صفحات الكتاب المذكور آنفـًا.

❁❁❁❁❁

[1] فلسفة الذات في فكر محمد إقبال، رائد كاظم، ص ٩٠-٩٥ ، بتصرف.

ثالثا: رموز إثبات الذات ونفيها:

يوضح إقبال في مثنوياته ولا سيما منظومة " أسرار خودي" و " جناح جبريل " و"ضرب الكليم"، مذهبه الفلسفي عن فكرة الذات، مصوِّراً إياها في أبيات شعرية لا تقل روعة عن رباعيات الخيام، أو لزوميات المعرِّي؛ وتحمل من الرمزية والإيثار ما جعله يُودع فيها مذاهبه ومواهبه.

ويؤكد إقبال: أن الأصلَ في إثبات الذات هو الانفرادُ مع الكامل، والأصل في نفي الذات هو الكمال والقوة والخير مع الجماعة، فإذا اجتمعتْ الذوات بهذه الخصال؛ نشأ مجتمعٌ إسلاميّ مثاليّ، وهو ما يُعرف عنده بنفي الذات، وهذا يؤكد نفيه لقضية وحدة الوجود التي جاء بها الصوفية، فهو يتفق معهم في أمور ويختلف في كثير.

فـ" نفي الذات يبني مجتمعاً لأناس كملة، تتمتَّع ذواتهم بأقصىٰ ما لها من بريق، فالإنسان الكامل يعشق الحقَّ في أقصىٰ مداه، والذات في أوج مجدها"[1].

ومفاد القول عنده أن:" الذاتية هي البحر الذي لا ساحل له، .....والخير كل الخير هو الذي يقوي الذاتية، وأما الشر فيضعفها، ويعوقها عن الامتداد، وينقصها ويقف دون ازديادها "[2]

١) فأول ما يدل علىٰ إثبات الذات عند إقبال، هو قضية التوحيد، الماثلة

---

[1] مقدمة ديوان محمد إقبال، ص ٦٩.

[2] إيوان إقبال(مختارات من شعره)، صاوي علي شعلان، مصر: اللجنة الباكستانية المصرية للاحتفالات المئوية بذكرىٰ إقبال، ١٩٧٧م، ص ١٢٩.

في أركان الإسلام، فيقول[1]:

درَّةُ التوحيد، فاحفظها الصلاة ... حجُّك الأصغر، فاعرفها الصلاة
يفتك الصومُ بِجُوْعٍ وَصَدَىٰ ... ضابطًا بالقسط هذا الجَسَدَا
وينيرُ الحجُّ قلبَ المؤمنِ ... هجرةُ الأهل به والوطنِ
بالزكاة العابدُ المالِ ادَّكرْ ... علَّمتْ حبَّ المساواة البشرْ
تُكثر المال، وشُحًّا تمحق ... " لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا"

- ويقول أيضا في قصيدة بعنوان " التوحيد "[2]:

قوَّةٌ كان في الحياةِ علىٰ الأرْ ... ضِ فَصَارَ التوحيدُ علمُ الكلام

" فإذا كانت عصا موسىٰ تبطل السَّحر، فعصا التوحيد تبطل الخوف"[3].

٢) ومن رموز نفي الذات وإثباتها هي قضية الضعف والقوة، والغالب والمغلوب بين الدول والأمم، فالخير في إثبات الذات والشر في ضعفها، والتدبير مع التريث أفضل من القوة مع الرُّعُونة، فيقول في قصة خيالية رمزية طويلة يحكي:(أنَّ قَطِيْعًا من الضأن يحنو عليه إقبالُ ويساند ضعفه، مع قطيع من الأسود يذم إقبال طَيشَه ويستنكر شراسته) بَلَغَتْ ستةً وأربعين بيتًا، منها[4]:

قوة التدبير في دفع الضرر ... في زمان الضعف أقوىٰ وأمرّ

---

(١) ديوان الأسرار والرموز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ٤٢.

(٢) ديوان ضرب الكليم، ترجمة: عبد الوهاب عزام ، ٢/ ٢٩..

(٣) محمد إقبال مختارات شعرية ، كتب المقدمة: بومدين بوزيد ، ص١٧.

(٤) ديوان الأسرار والرموز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ص ٣٥-٣٦.

ويـحَ جَـلْـدٍ أُحـكِـمـتْ فـيـه قُـواهْ " نفيُ الذاتِ " هو إحكام الحياهْ
علَف العُشـــبِ بـه الروح تطيـبْ عـائـفُ الـلـحـم إلـىٰ الله قـريـبْ
حِـدَّةُ الأســـنـــان عـارٌ مُـبـرَمٌ بَصَـــرُ الإدراك مـنـهـا يُـظـلـمُ
إنـمـا الـقـوةُ خُســـرانٌ مـبـيـنْ خُصَّـــتِ الجنَّة بالمســتضــعفين

٣) ومن أسرار إثبات الذات الفخرُ والعِزَّةُ وما يتبعها من زهد المقتدر وزهد الملوك، ليس الذل وما يتبعه من زهد الدراويش والمتصوفة؛ لأنه زهد عجز وليس قدرة، وهذا يؤكد عدم انتمائه الكامل للصوفية .

وإن كان الشاعر إقبال يُحبُّ الحياة مع الله تعالىٰ، ولكنه يكره إذلال النفس وخنوعها وإهانتها وامتهانها من أجل التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ، لذا فهو متناقض مع فكر الصوفية في هذا الباب، بل يرىٰ أن التصوف الحق أن يكون دون إذلال؛ وزهد الغني عنده أعظم وأحب من زهد الفقير؛ لقدرته عليه وتمكنه من خلع لباس الترف والزهو دون الثاني المضطر المجبر، فيقول[1]:

الزُّهد إخضـــاعُ هذا الطين والشَّـــرر وليس في بُعْدِنا عن عالمِ البشـــر
فقـل لصـــوفيَّةٍ بـالـفـقـر راضـــيـةٍ هذا العذابُ عقابُ الجُبْنِ والخَور
ومـا عـلـيـك إذا أنـكـرْتَ مَـذْهَـبَـهُـم وقلتَ: أطْلبُ منكم زُهْدَ مُقْتَدِرِ

ويعمد إلىٰ الفكرة وإبراز المعاني وتجليتها للتعبير عن عيب الأمة التي تبدأ عِزَّها بالسيوف (القوة) وتنتهي بالدفوف (الضعف) المتمثل في (دروشة الصوفية)، فيقول[2]:

---

[1] ديوان جناح جبريل، زهير ظاظا ، ١/ ٤٣٩.

[2] السابق ، ١/ ٤٤٧.

فـانـظـرْ إلـىٰ قَـدَرِ الشُّـــعـو ب ، وكـيـف يـبـدأُ بـالسُّـــيـوف
فـإذا انـتـهـىٰ فـإلـىٰ الـمـزا مـيـر الشَّـــجـيَّـة والـدُّفـوف

ويقول في قصيدة " المُرشد والمُريد " من ديوان "جناح جبريل" [1]:

قـال رومـي: جـنَّـةُ الإســـ ـــــلامِ في ظـلِّ الســيـوف
لـيـس مـا تـطـلـبـه الـرُّهـ ـــــبانُ مـن أمـن الـكـهـوف

فهو يرىٰ أن في ضعف الأمة وانسلاخها من ذاتها، ومسخ قانون قوتها، واختيارها للخنوع والاستكانة والتصوف وإذلال النفس لذات الله تعالىٰ؛ ضعفًا للذات لا قوة.

يقول إقبال:" كل شعر التصوف ظهر في زمان ضعف المسلمين السياسي، وكل أمة يصيبها ضعف كالذي أصاب المسلمين بعد غارات التتار، تتبدَّل أنظارها وتتجمَّل الاستكانة في عينها، وتركن إلىٰ ترك الدنيا، وفي هذا الترك تُخفي ضعفها وهزيمتها في تنازع البقاء"[2].

٤) من أسرار إثبات الذات التوتر والقلق ومن أسرار ضعف الذات الركون إلىٰ الراحة والاسترخاء، يقول إقبال في مقاله إلىٰ نكلسون:" وشخصية الإنسان – من الوجهة النفسانية– حالٌ من التوتر، ودوام الشخصية موقوف علىٰ هذه الحال، فإن زالت هذه الحال عقبتها حال من الاسترخاء مُضرّةٌ بالذات، فإن يكن في حالة التوتر هذه كمال الإنسان فأول فرض عليه

---

[1] ديوان " جناح جبريل، زهير ظاظا ، ١/ ٥٢٦.

[2] ديوان الأسرار والرموز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، رص ١٣ .

أن يعمل لدوام هذه الحال والحيلولة دون حال الاسترخاء"[1]، فيقول[2]:

(الكامل)

لما اشتكىٰ لله إسرافيلُ من ... شكواي قال- بحرقةٍ وتنهُّدِ-:

هذا الفتىٰ قبل الأون يريد أن ... ينهي الوجود بشِعْره المتمرِّدِ

فأجابه صوتٌ: أليس أشدَّ من ... هذي النَّهاية ما ترىٰ يا سيدي

إحرامُ أهلِ الصِّين داخلَ سَدِّها ... ورقودُ مكَّةَ في جوارِ محمَّد

ويقول منكرا الراحة ايضا وداعيًا إلىٰ القلق والتوتر[3]:

قلقُ القلب غذاءٌ ... وعطاءٌ حيويُّ

إنَّ قلبًا ليس فيه ... قلقٌ، قلبٌ شقيُّ

ويكرر المعني ذاته، فيقول[4]:

الرَّاحةُ الكُبرىٰ بقلـ ... ـبكَ والسَّكينةُ خُدْعَتانْ

فالكونُ ذرَّاتٌ يهيِّـ ... ـجُها برقصته الزَّمانْ

وظاهرة التكرار كثيرة في شعر إقبال، وهي سمة بارزة في دواوينه، سواء أكان تفننًا من الشاعر وقدرةً منه علىٰ الإبداع، أم قصده قصداً؛ رغبةً منه في تأكيد المعنىٰ علىٰ وجه العموم ، فالتكرار سواء أكان في القصيدة نفسها أو

---

[1] ديوان الأسرار والرموز ، ص ٢١، بتصرف.

[2] ديوان جناح جبريل، زهير ظاظا ، ١/ ٤٢٢-٤٢٣.

[3] السابق ، ١/ ٤٤٠.

[4] السابق ، ١/ ٥١٥.

بين القصائد؛ يحمل معنىٰ الإلحاح علىٰ الفكرة، ويعطي الألفاظ جرسًا داخليًا بالإضافة إلىٰ الجرس العروضي.

٥) ومن الرموز التي تدل علىٰ إثبات الذات الصلاةُ، فهو يرىٰ في القيام عند الصلاة ما يدل علىٰ إثبات الذات وقوَّتِها، وفي السجود من غير صلاة ضعفٌ واستكانةٌ، لذا يُنكر الصلاة التي خلت من القيام فيقول[١]:

إمامُك يفقدُ معنىٰ الخشوع ... ويَنْقُصُ نجواك عزُّ القيام

أمثلك يرضىٰ بهذا الخنوع ... وتلك الصَّلاة وذاك الإمام

ويؤكد المعنىٰ عن طريق قلب المعنىٰ إلىٰ السلب، فيقول[٢]:

هذه الأغبياء تسجدُ لمَّا ... يقتضي الأمرُ أنْ يكونوا وقوفا

فهو يرىٰ أن السجود هنا غير مقبول؛ لأنه في غير موضعه، ولغير مستحقه.

ويرىٰ أن الأصنام ما زالت بين الناس لم تنقطع عبادتها، ولكنها تظهر في صور مختلفة، والسجود لها بلغ الآلف، ولا ينجيك منه إلا قيام الصلاة الذي يثقل عليك حينًا، فيقول في نتفة من بيتين بعنوان " الصلاة"؛ ليؤكد كراهيته للسجود بدونها[٣]: (المتقارب)

تلوِّنُ في كل ثوبٍ مَناةُ ... وشابَ بنو الدَّهر وهي فتاةُ

فهذا السُّجودُ الذي تجتويه ... به من ألوف السجود نجاة

---

[١] ديوان جناح جبريل، زهير ظاظا ، ١/ ٤٢٧.

[٢] السابق، ١/ ٤٥٠.

[٣] ديوان ضرب الكليم، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ، ٢/ ٣٨.

ويقول في مقطوعة بعنوان " صلاة العبيد"[1]:

قال بعدَ الصلاة خِلفُ جهادِ: كم يطيلُ الصلاةَ فيكم إمامُ

لا تعجَّبْ إذا أطال سجوداً ما لديه سوىٰ السُّجود مَرامُ

ويقول للذين أضاعوا الدين من أجل بقاء الأحزاب[2]:

ذهبَ الدِّينُ في الجبال شعاعًا كلُّ حزبٍ لِلُبده في سجودِ

٦) ومن رموز إثبات الذات وقوتها، السيفُ وغِمدُه، فهو يرىٰ في السيف قوةً وفي الغمد ضعفًا، فيقول[3]:

فدعْ ترفَ الغمْدِ ما للهلالِ علىٰ فخره غيرُ شكلِ الحسام

ويقول في موضع آخر [4]:

غُصْ طويلاً فأنتَ أيضًا عميقٌ وافهم القَصْدَ فالحياةُ قصيرة

أنا (سيفًا خرجت) من غير غِمْدٍ ضاعَ في غَمْرَةِ المعاركِ غِمْدي

ويصف ذاته النبيلة بحدِّ السيف فيقول[5]:

أنا مجالي الذاتُ في مشاعري نبيلةٌ كحدِّ سيفٍ بَاتر

---

[1] ديوان ضرب الكليم، ترجمة: عبد الوهاب عزام ، ٢/ ١٢٠.

[2] السابق، ٢/ ١٣١. اللُّبدُ: الصَّنَمُ.

[3] ديوان جناح جبريل، زهير ظاظا، ١/ ٤٢٧.

[4] السابق، ١/ ٤٥٠.

[5] السابق، ١/ ٤٥٤.

ويشبه أثر الذات في الأنفاس بحدِّ السيف فيقول[1]:

مـوجـةُ الأنـفـاس سـيـفٌ جَـعَـلَـتْـهُ الـذاتُ حـدَّا

ويقول في قصيدة بعنوان "الذاتية" من ديوان "هدية الشرق[2]":

بـدتْ ذاتـيـةٌ سـيـفـًا حسـامـا ويُـعـرفُ حـدُّهُ لـونٌ ورِيـحُ

٧) ويرمز إلىٰ إثبات الذات وقوتها بالجبال والصحراء والجزيرة العربية التي تَعْنِي القوة والنقاء، ويختار إقبال الطير(شاهين) ليعبر عن أسراره؛ لأن الشاهين يمتاز بعلو التحليق فلا يطير منخفضًا، ولا يبني لنفسه عشًّا؛ ليعيشَ حُرّاً ، ولا يأكل مما يقتنصه الآخرون؛ صونا لكرامته، ليرمز بذلك إقبالُ إلىٰ الدِّين الذي يريد إثبات ذاته، الذي يعاف التقليد كما يعاف الشاهين فريسةَ غيره، فيقول[3]:

أنـا نَجْـلُ الصـحراءِ والزهـدُ ديني وهـمـا في سـجـيَّـتي ودمـائي

أَجْـهَـلُ الـزَّهـرَ والـنسـيـم ومـا في لوعـةِ العنـدليـب عنـد المسـاء

ورجـالُ الـبسـتـان تُـغـري ولـكـنْ لـيس تُـغْـري منشَّـأً في الـعـراء

أيـن مـجـدي إذا شـقـيـتُ لـجـوعٍ وأذلَّـتْ حـمـامـةٌ كـبـريـائـي

بـافـتـراسـي أصـونُ عـزَّة وجـهـي وأروِّي حـمـاسـتـي وإبـائـي

كـلُّ طـيـرٍ لـه مـن الأرض عـشٌّ وأنـا هـاهـنـا حـلـيف مضـائي

---

(1) ديوان " جناح جبريل، زهير ظاظا ، ١/ ٥١٦.

(2) ديوان هدية الحجاز، صاغه بالعربية شعراً: حسين مجيب المصري ، ٢/ ٤٨٩.

(3) ديوان جناح جبريل، زهير ظاظا ، ١/ ٥٤٧.

ويقول أيضًا(١):

يـا جبـالي أيَّـانَ عـنـكِ الـمسـيـرُ و ترابُ الآبـاء هـذي الصُّـخورُ
لا زهـورٌ ولا صَـدىٰ عـنـدَلـيـبِ فيـكِ منذُ الآزال تـأوي الصُّـقورُ
جـنَّـتي فـيـك مَـخـرمٌ وشـعـابٌ مـاؤك النُّور، والتُّرابُ الـعـبـيرُ

٨) ومن رموز إثبات الذات قصصُ الأنبياء، مثل قصة عصا موسىٰ، وتحطيم الأصنام، وذبح إسماعيل، وقصة النار مع إبراهيم – عليهم السلام جميعًا- .

يصف إقبال عصا موسىٰ عليه السلام أنها إثبات للذات التي تقنص العالم، فيقول (٢):

ظـاهـرُ الـعـالَـمِ سـحـرٌ وعصـا مـوسـىٰ ثـبـاتُـكْ
أسـدُ الله الـذي يـقـ ـتـنـصُ الـعـالَـمَ ذاتُـكْ

ويستحضر الصورة البيانية في ضرب الكليم موسىٰ عليه السلام ضربَ يقينٍ؛ ليظهر لك ألفُ عين من العطاء، فيقول(٣):

فِـطْـرةُ الـحُـرِّ لا تُـطـيـق مُـقـامـًا فـاتْـلـف الـسـيـرَ دائبـًا كـالـنـسـيـم
ألفُ عَينٍ تشـقُّ صـخرَك فاضـربْ بَعْدَ غَوصٍ في (الذَّات) ضـربَ الكَلِيم

(١) ديوان ضرب الكليم، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ٢/ ١٢٥.

(٢) ديوان جناح جبريل، زهير ظاظا، ١/ ٥١٨. اعتمد– في غالب دواوينه– علىٰ مجزوء البحور والبحور الخفيفة مثل الرمل والخفيف والرجز والكامل.... ليثير في نفس المتلقي ما يريد أن يثيره من ألوان الحس والشعور.

(٣) ديوان ضرب الكليم، ترجمة: عبد الوهاب عزام ، ٢/ ١٧.

ويرمز بعصا موسىٰ إلىٰ إثبات الذات الكائنة في تحطيم الباطل–الذي يرمز إليه بصدع الجبال–، وما زال طور سيناء ينتظر مَن هو مثل الكليم في كل عصر ليُرىٰ صدقُ الكلام، فيقول[1]:

إذا سلب الغربُ قلب الغَرير ... فسرُّك يغزو مصيرَ الأنام

عصاك تُصَدِّعُ الجبال ... وتعرف سيناءُ صِدقَ الكلام

ويقول في حوار بينه وبين أستاذه " جلال الدين الرومي" مستحضراً قصة إبراهيم عليه السلام التي يحطم فيها الأصنام لإثبات الذات الماثلة في ظهور الحق وإزهاق الباطل، فيقول [2]:

قال: مَن سوَّىٰ لك الأصْـ ... ـنام سوَّىٰ لك فأسهْ

وبأحجار الحبيب ... يضربُ الحاذقُ رأسهْ

ويرمز بتحطيم الأصنام(قوة الذات) إلىٰ الخلاص من التقليد والفساد(ضعف الذات) فيقول [3]:

ليس يُجدي الهمُّ في شيء إذا ... لم تَضَعْ ذاتَك تحتَ التَّجرِبَهْ

حطِّم الأصنامَ يوماً واحداً ... لا تخفْ معبدَها أنْ تخربَهْ

حطِّم الأوثانَ أوثانَ العروق ... واهدمِ الأصنامَ أصنامَ القبائلْ

وانضُ أغلالَ التقاليد التي ... تتعنَّىٰ خلفها من غيرِ طائلْ

---

(1) ديوان جناح جبريل، زهير ظاظا ، ١/ ٤٢٧.

(2) السابق، ١/ ٥٢٤.

(3) السابق، ١/ ٥٣٧.

ويقول في صراع الذات بين الحق والباطل من أجل إثبات الذات مستحضراً صورة إبراهيم عليه السلام [1]:

كـنْ مـثـلَ إبـراهـيـمَ في الإيـمـان حـتـىٰ تـزيـلَ مَـعـابـدَ الأوثـان

الشـــعـبُ يَـبـنـي عِـزَّه بـكـفـاحِـه لِيُشِـيْـدَ مجـداً ثـابـتَ الأركـان

ويعتمد علىٰ المعاني القرآنية في تحريك صورته فيقول في قصة النار والأصنام وما تحمله في ذاتها من الغضب والكفر فيتحوَّل بالشكر والامتنان إلىٰ السلام والإيمان، فيقول:[2]

كـنْ كـإبـراهـيـمَ شُـــكـراً وَهُـيـامـًا لـتصـــيـر الـنَّـارُ بـرداً وسَـــلامـا

اجْعَلِ الأصـــنامَ في الأرض هشـــيما لا تغـادرْ هيكلاً منهـا قـديـما

ويشير إلىٰ قوة إثبات الذات بإبراهيم عليه السلام، الذي يرمز به لكل مسلم مطيع في كل عصر، ويرمز إلىٰ ضعف الذات بالنار التي صنعها النمرود؛ إشارةً إلىٰ كل عاص وفاسد ومتكبر في كل زمان، فيقول[3]:

قـد قـال في ألـحـان فـاسْـــ ـــمعْ مقـال شـــيخٍ رشـــيـد:

في كـــلِّ دهـــرٍ خـــلـــيـــلٌ والـــنَّـــار مـــن نـــمـــرود

فإلقاء إبراهيم عليه السلام في النار فتصير بردا، وعصا موسىٰ التي تشقُّ البحر فيكون جسراً، وتحطيم الأصنام فتصبح قَفراً مَوتوراً، وآيةً موسومةً،

---

[1] ديوان " والآن ..ماذا نصنع يا أمم الشرق؟"، ٢/ ٣٤٢.

[2] ديوان " والآن ..ماذا نصنع؟ يا أمم الشرق"، ٢/ ٣٤٣.

[3] ديوان رسالة الشرق، صاغه بالعربية شعراً: عبد الوهاب عزام ، ١/ ٣٠٧.

كل ذلك يؤكد كمال الذات وقوتها؛ لأن النار والأصنام والسحر يحمل معنىٰ الضعف للذات؛ لأنها لم تحقق ذاتها التي خُلقتْ من أجلها، والبرد والتحطيم والشق يحمل معنىٰ القوة تمهيدا لإثبات الذات التي يأتي بها النبي محمد(ﷺ)، فتكتمل الذات بكمال الإيمان.

فأسرار نفي الذات ورموز إثباتها في دواوين محمد إقبال كثيرة، بعضها ظاهر المغزىٰ والآخر بعيد، تنوَّعت معانيه وأفكاره، جاءت واضحة جزلة حينًا، وجاءت غامضة متعمدةَ الإيحاءِ حينًا آخر.

ولقد ذكر شُرَّح الدواوين أسرارا كثيرة منها : العشق، والمحبة ، والفقر، والجهاد، .... الخ، وما أحببتُ أن أكرر ما سطَّروا.

❁❁❁❁❁

الخاتمة

وبعد هذه الاطلالة السريعة في دواوين الفيلسوف المسلم محمد إقبال، لنستعرض قضية " إثبات الذات ونفيها في شعره الفياض؛ لنصل للقصد والهدف، فلقد وافتنا عدة نتائج وتوصيات:

أولاً: النتائج :

- إثبات الفردية والوحدانية لذات الله تعالىٰ، بلا شريكٍ في مُلكٍ، ولا تجسيد ولا حلول في خَلقٍ، فهو الأوحد لا مثل له، ومَن شاركه – جلَّ في علاه- في بعض صفاته وما فاضت به ذاته من الكمال، فأصبح للطاعة أقرب، ولضبط للنفس أدوم، وللحب والعشق دون إذلال أو ضعف أشمل؛ كان خليفة الله في أرضه ووكيله، من قبيل قوله تعالي في آدم عليه السلام: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾ [سورة البقرة: ٣٠].

- يرىٰ إقبال أن بيت الله الحرام هو المركز المحسوس للأُمَّةِ، وعاصمة البلاد الإسلامية من أجل توحيد الكلمة، وجمع الشمل، وعلو الرَّاية، وإثبات الذات الجماعية، لتحقيق ذات الأمة وكمالها.

- لم يقصد إقبال بنفي الذات الضدَّ، وإنما أراد التَّحوُّل من الذات المفردة إلىٰ الذات المشتركة (ذات الأُمَّة) التي بها مقاصد الحياة؛ لإثبات مجتمع قائم علىٰ بناء الثقة في الفرد والمجتمع؛ لأن الإسلام هو الأسمىٰ لِخَلْقِ مُجتمعٍ متفرِّدٍ بذاته، يمتلك الفاعلية الجماعية وتطورات الحضارة.

- أدرك إقبال أن الذات تعني الفردَ (الأنا) المسلم لا غير، والأمةُ الإسلاميةُ فوق كل الموجودات الأخرىٰ الخادعةِ التي تحاول انحطاطها وضياع مجدها

السياسي والديني والفكري الذي يضرب في أعماق التاريخ؛ من أجل إثبات (أنا) غربية زائفة .

- نادىٰ إقبال في دواوينه وكتبه بالتجديد الفكري أو(الفكر التجديدي) الذي يُخرج الدين من الجمود والأساطير التي لا يُقرُّها الإسلام؛ رغبةً منه في فهم الدين فهمًا جديداً يصل إلىٰ عقول الغرب، وينجو به من المتزمِّتين القائمين علىٰ الأحكام الدينية بلا روحٍ ولا عقل.

- يرىٰ إقبال أن الغرب سيطروا علىٰ العرب بقُوَّتِهم الهشَّة وحضارتهم المستحدثة، فتحكَّموا في اقتصادهم وأخذوا مقدَّراتهم بالسلاح دون مقاومة؛ ليراكموا ممتلكاتهم الماديةَ من خلال استغلال المجتمع الإسلامي.

ثانياً: التوصيات :

- يُعد هذه البحث خطوة أمام الباحثين للاطلاع علىٰ دواوين محمد إقبال، فلم أر في القديم ولا في الحديث حبَّ الإسلام وعِزَّ العبودية لله تعالىٰ كما في دواوينه.

- من الموضوعات التي ما زالت بكراً في دواوينه (الثائر، القافلة، الصحراء، عزَّ العبودية لله تعالىٰ، المدائح النبوية، تفسير بعض السور القرآنية في صورة أبيات شعرية، المرأة، ظواهر المجتمع الإسلامي، الرد علىٰ فلاسفة الغرب، الرمزية، إقبال والحضارة الغربية، جمع ودراسة للأبيات التي تتحدث عن الذات دراسة فلسفية أدبية حول مراميها ومعانيها .....الخ)

المصادر والمراجع

- إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ، دار المعرفة – بيروت ، (د. ط . ت)
- الأنا والهو ، سيجمند فرويد ، ترجمة: محمد عثمان نجاتي، ط٤، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢م.
- إيوان إقبال(مختارات من شعره)، صاوي علي شعلان، مصر: اللجنة الباكستانية المصرية للاحتفالات المئوية بذكرىٰ إقبال، ١٩٧٧م.
- تاج العروس للزبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية .
- ديوان الأسرار والرموز، محمد إقبال ، ترجمة: عبد الوهاب عزام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، (د: ط، ت).
- ديوان جناح جبريل، نقله من الفرنسية إلىٰ العربية نثراَ: عبد المعين الملُّوحي، وصاغه بالعربية شعراً: زهير ظاظا " ضمن ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ، ط٣ ، دار ابن كثير ، دمشق،٢٠٠٧ م.
- ديوان جناح جبريل، محمد إقبال، ترجمة: جلال السعيد الحفناوي، ط١ ، المجلس الأعلىٰ للثقافة – مصر، ٢٠٠٣.
- ديوان رسالة الخلود، نقله إلىٰ العربية شعراً: حسين مجيب المصري ، ضمن ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ، ط٣ ، دار ابن كثير ، دمشق،٢٠٠٧ .
- ديوان رسالة الشرق، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ، ضمن ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ، ط٣ ، دار ابن كثير ، دمشق،٢٠٠٧ .
- ديوان زبور العجم، نقله إلىٰ العربية شعراً/ حسين مجيب المصري، ، ضمن ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ، ط٣ ، دار ابن كثير ، دمشق،٢٠٠٧ .

- ديوان ضرب الكليم، محمد إقبال ، ترجمة: عبد الوهاب عزام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، (د: ط، ت).
- ديوان " صلصلة الجَرْسِ ، ترجمة: صاوي شعلان" ضمن ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ، ط٣ ، دار ابن كثير ، دمشق، ٢٠٠٧م.
- ديوان " هدية الحجاز، صاغه بالعربية شعراً: حسين مجيب المصري، ضمن ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري ، ط٣ ، دار ابن كثير ، دمشق،٢٠٠٧ .
- ديوان " والآن .. ماذا نصنع يا أمم الشرق؟"، نقله إلىٰ العربية نثراً: أحمد الغازي، وصاغه بالعربية شعراً: صاوي شعلان المصري، ضمن ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد الغوري، ط٣ ، دار ابن كثير ، دمشق،٢٠٠٧ .
- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، للشيخ الألباني ، دار المعارف – الرياض ، ١٩٩٢م.
- فلسفة إقبال والثقافة الإسلامية في الهند وباكستان، محمد حسن الأعظمي ، والصاوي علي شعلان ، ط٢، دار الفكر – دمشق ، ١٩٧٥م.
- فلسفة الذات في فكر محمد إقبال، رائد جبار كاظم، دار نينوىٰ– سوريا– ط١، ٢٠٠٩م.
- محمد إقبال فيلسوف الذاتية، حسن حنفي، دار المدار الإسلامي، ط١، ٢٠٠٩م.
- محمد إقبال مختارات شعرية ، كتب المقدمة: بومدين بوزيد ، وزارة الثقافة والفنون والتراث – دولة قطر، ٢٠١٤م .
- المدهش ، أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد الجوزي، تحقيق: مروان قباني، ط٢، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٩٨٥م.

- مذاهب وأفكار في الفلسفة والفن ، عبد القادر محمود، مطبوعات جامعة القاهرة، ط١، ١٩٧٢م.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، وآخرون، ط١، دار عالم الكتب، ٢٠٠٨م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة .
- منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين، مصطفىٰ محمد حلمي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٦ هـ.